ملامح السعادة في تربية الطفل على العبادة

إعداد

الدكتور عبد المجيد البيانوني

عضو رابطة الأدب الإسلاميّ العالميّة
المشرف العلميّ على موقع الميثاق التربويّ

1426 هـ

الطبعة الأولى 1426 هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

قال الله تعالى :

{ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) } ابراهيم .

{ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (40) } إبراهيم .

{ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُــرَّةَ أَعْيُنٍ ، وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامــاً (74) } الفرقان .

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الوالدين المؤمنين ، اللذين يتطلّعان إلى أولادهم أن يكونوا قرّة أعين لهم في الدارين .

إلى الأسرة المسلمة التي عرفت هدف حياتها ، وغاية وجودها .

إلى أمّة الحقّ والهدى ، التي لا يضرّها من خالفها أو خذلها ..

أمّة العبادة

والقيادة والشهادة .

أهدي هذه المقالات نبراساً وذكرى ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائل في كتابه المـــبين : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ الذاريات ، والقائل أيضاً : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ الحجر ، والصلاة والسلام الأتمّـــان الأكملان على ســـيّد العابـــدين ، وأشرف الأنبياء والمرسلين ، وسـيّد الخلق أجمعين ، القائل : (**أفَلا أكُـــونُ عَبـــداً شَكُوراً**) [1] ، وعلى آله وأصـــــــــــحابه والتـابعين ، ومن تبعهم بإحسـان إلى يـوم الدين ، وبعد ؛

فإنّ أولويّةَ البدء بتربية الأطفال تفرض نفسها بصورة أكبر عندما نعلم أنّ الأطفال والناشئة يشكّلون من جهةٍ شريحةً واسعةً من المجتمع ، وهم من جهةٍ أخرى

1(?) ـ رواه البخـاري في كتـاب تفسـير القـرآن 4460 ، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار 5046 .

يشكّلون بقيّة الشرائح في المستقبل ..
ولاشكّ أنّ تأسيس التربية على أصولها الراسخة خير من إهدار القوى والطاقات في معالجة النتائج السلبيّة للإهمال والتفريط .

وأيّهما أولى بالاهتمام والتقديم : إعــداد أجيال صـحيحة النشـأة قويمة البنيـان ، أم بـذل الجهـود في إصلاح الراشـدين .؟ وإذا كـان كلا الأمــرين ضــروريّاً ، فــإنّ أولويّة التربية للأطفال والناشئين تفرض نفسـها ، لأنّ مسئوليّة الآبـاء والمـربّين عن تـربيتهم ورعـايتهم أكـبر وآكـد ، ولأنّ مَا يقـدّم لهم كالبـــذر في الأرض الطيّبة يحسُـــن نباته ، ويعظم خيره بإذن الله ، ويكثر ثمره .

وإنَّ التربية على العبادة من أعظم مقاصد التربية الإسلاميّة وأهدافها ، وهي تحتاج إلى عناية المربّي ورعايته ، وجهد مقصود منه ، يتعهّد به الطفل منذ نعومة أظفاره ، يحبّب له العبادة ، ويرغّبه بها ، ويشوّقه بحاله وقاله إلى اليوم الذي يكون فيه كبيراً ، فيؤدّيها مثل الكبار ..

وإنّ الخطأ الذي يقع فيه كثير من الآباء والأمّهات أنّهم لا يمهّدون للطفل سبيل العبادة منذ مرحلة مبكّرة ، حتّى إذا أصبح

في سنّ السابعة أمروه بالصلاة ، فرآها ثقيلة على نفسِه ، لأنّه لم يمهّد له السبيل إليها .

على أنّ خير تمهيد للطفل ما يراه من والديه صباح مساء ، ومن إخوته الكبار ومعلّميه ، من أدائهم للصلاة ، وحرصهم عليها ، واهتمامهم بها ، وكذلك سائر العبادات .

وفطرة الطفل السويّة خير ما يعين المربّي على تحبيبه بالعبادة وترغيبه بها ، " وإنّ القلبَ الإنسانيَّ دائمُ الشعورِ بالحاجةِ إلى اللهِ تعالى ، وهوَ شعورٌ أصيلٌ صادقٌ ، لا يملأُ فراغَه شيءٌ في الوجودِ ، إلاّ حسنُ الصلةِ بربِّ الوجودِ ، وهذا ما تقومُ بهِ العبادةُ ، إذا أُديَت على وجهِها ، فكيف بقلب الطفل ، الذي هو صفحة بيضاء نقيّة .؟

وكلَّما أخلَصَ المرءُ العبوديةَ للهِ وجدَ نفسَه ، واهتدى إلى سرِّ وجودِه ، ووجدَ معَ ذلكَ سعادةً روحيةً لا تدانيها سعادةٌ ، تتمثلُ فيما سماهُ الرسولُ : " حلاوةَ الإيمانِ " [1] .

1(?) ـ من خطب الشيخ أحمد عزّ الدين البيـانوني رحمه الله المكتوبة .

والحـــــديثُ عن " أطفالِنَا والعبـــادة " حــديث للآبــاء والمــربّين بالدرجة الأولى ، لأنّهم هم القـــائمون على شـــئون الأولاد ، المكلّفون بتربيتهم ورعايتهم ..

وإنّه على قــدر وعي الآبــاء والمــربّين بشـــئون التربية ومتطلّباتِها ينجحـــون في القيام بمسئوليّتهم وأدَائها على أحسَن وَجه .

وبعد ؛ فهذه مجموعة من المقالات في تربية الأطفــال على العبــادة ، أســأل الله تعالى بمنّه وفضله وكرمه ، أن تكون عونــاً للمـــربّي على تحـــبيب الطفل بالعبـــادة وتنشـــــئته عليها ، وأن ينفع بها ، ويتقبّلها منّي ، ويعظم لي بها الأجر والمثوبــة ، إنّه أكـــرم مســـئول ، وأرجى مـــأمول ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

وصلّى الله وسـلّم وبـارك ، على عبـده ونبيّـه الأمّيّ ، الطـاهر الـزكيّ ، وعلى آله وأصــحابه ، ومن تبعهم بإحســان إلى يــوم الدين ، والحمد لله ربّ العالمين .

جدّة في 17/1/1426 هـ وكتبه

د. عبد المجيد البيانوني

إنّ العبوديّة لله تعـــالى ســـمة تطبع الحيـــاة الإنســـانيّة من أوّلها إلى آخرها ، وفي كبير الأمـور وصـغيرها ، ومثلها كمثل الأوراق الرسـميّة الـتي تتّخـذها الـوزارات والإدارات الحكوميّة ، تحمل صـــــفتها ، وتـذيّل بختمها ، فلا يشـكّ أحد في نسـبتها إليها .

1 ـ تحقيق العبوديّة لله تعـــالى ، وشكره على ما أنعم به وتفضّل .

2 ـ تهـذيب النفس ، وتحقيق اتّصـالها بالله سبحانه .

3 ـ تحقيق التـــوازن في شخصـــيّة الإنسان وسلوكه .

4 ـ تربية الإنسان على حسن الاتّصـال بالجماعة والتعاون معها .

5 ـ اعتـدَال صـحّة الإنسـان وسـلامة جسمه .

6 ـ تهـذيب الأخلاق ، وتربية الضـمير على المكارم ، وغرس الشمائل الطيّبة .

7 ـ تقوية إرادة الإنسان ورفع همّته .

هنــاك بــدهيّات في التربية الإســلاميّة ينبغي ألاّ تغيب عن فكر كلّ مسـلم فضـلاً عن المربّي ، وأهمّها :

1 ـ لابـدّ من إشـاعة أركـان الإيمـان وحقائقه ، بـــــدلائلها وبراهينها بين العامّة والخاصّـــة ، بصـــورة ينتفي فيها الجهل ، ويعمّ العلم .

2 ـ لابـــدّ من تأســيس التربية على الإيمان بالله واليوم الآخر وحقائق الإيمـان وثمراته .

3 ـ ضرورة الربط بين الإيمـان والعمل الصالح ، فكما أنّ العمل بغير الإيمان هبـاء منثـور ، فـإنّ الإيمـان بغـير عمل شـجرة بدون ثمرة .

4 ـ الإيمان بأسماء الله تعالى وصـفاته هو الأصل الأكبر ، الذي تقوم عليه العقيدَة الحقّة ،

5 ـ لابدّ من اعتماد الوسائل الصـحيحة الفعّالة في غـرس الإيمـان وتعهّـده ، وألاّ يقوم ذلك على مجرّد التلقين والحفظ .

6 ـ ضـــرورة الربط بين الإيمــان وحقائقه ، وبين علوم الكـون ودلائله الـتي لا تحصى ، على أركـان الإيمـان وحقائقـه وأسسه .

الأســرةُ العابــدَة أمنية دعا بها الأنبيــاء والصـــالحون ، وتطلّع إليها المصـــلحون ، واشـــرأبّت إليها أعنـــاق المتّقين ، إذ إنّها تحقّق غاية الوجــود الإنســانيّ ، عــدا عمّا فيها من بقـاء الحـقّ يتسلسل في الأجيـال التالية ، يتوارثه الأبنـاء عن الآبـاء ، ويكـون سبب سعادة الأبنـاء في الآخـرة ، وعـزّهم وسيادتهم في الدنيا ، وهي مائدة ممــدودة ، وبـاب من الأجر والمثوبة مفتـوح للآبـاء ، بما يدعو لهم الأبنـاء ، ومَا كـانوا فيه سـبباً للخير والهدى ..

فقد وصف الله تعـــــالى بعض أنبيائه بقوله : { .. **وكانوا لنا عابدين** (73) } الأنبيـــاء ، وصـــيغة الجمع تشـــير إلى ما يمثّلونه من أسـرٍ صـالحة قـام بنيانها على الإيمـــان بالله والحـــرص على مرضـــاته وتقــواه .. وحــدّثنا القــرآن عن خليل الله إبــراهيم عليه السـلام أنّه دعا ربّه : { **ربّ اجعلني مقيم الصلاة ، ومن ذرّيّتي ، ربّنا وتقبّل دعـــاء** (40) } إبـــراهيم . ووصف الله نبيّه إســـماعيل عليه الســـلام بقوله سبحانه : { وكان يأمر أهله بالصـلاة والزكـاة ، وكـان عند ربّه مرضـيّاً (55) }

مريم . وجـاء في دعـاء عبـاد الـرحمن : { **والــذين يقولــون : ربّنا هب لنا من أزواجنا وذرّيّاتنا قرّة أعين ، واجعلنا للمتّقين إماماً** (74) } الفرقان .

والعبـــادة لله تعـــالى مظهر التحقّق بالعبوديّة الصـادقة ، الـتي يشـكر الأنبيـاء الكـــرام ربّهم عليها ، ويتمنّى المؤمنـــون الصادقونَ أن تسـتمرّ في أولادهم وذرّيّتهم منْ بعـــدهم ، فمن دعـــاء ســليمان عليْه السلام ، الذي قصّه علينا القرآن : { **قال : ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك الـتي أنعمت عليّ ، وعلى والــــديّ ، وأن أعمــلَ صــالحاً ترضــاه ، وأدخلــني برحمتك في عبـــادك الصـــالحين** (19) } النمل ، وحــدّثنا القــرآن عن حــال الرجل الصالح ، كيف يـدعو ربّه ويرجـوه : { **قـــال : ربّ أوزعـــني أن أشـــكر نعمتك الــــتي أنعمت عليّ ، وعلى والديّ ، وأن أعمـلَ صـالحاً ترضـاه ، وأصـــلح لي في ذرّيّـــتي ، إنّي تبت إليك ، وإنّي من المسـلمين** (15)ـ } الأحقاف .

وأمر الله تعـالى المؤمـنين أن يـأمروا أهليهم بالصـلاة ويصـبروا عليها ، والصـلاة أهمّ العبــــــادات العمليّة ، وأرفعها درجة ومنزلة ، فقـــال تعـــالى : { **وأمر أهلك**

بالصلاة ، واصطبر عليها ، لا نَسـألك رزقـــــــاً ، نحنُ نرزقك ، والعاقبة للتقوى (132) } طه .

فالأسـرة العابـدَة أسـرة عـرفت غايتها في الحياة ، فـانْطلقت نحوها بهمّة عالية ، وعزيمة صـــادقة راســخة ، لم تقف في طريقها عقبة ، ولم يثنها عنْ سبيلها شـيء ، لقد تحلّت بجلبـاب العبوديّة لله تعــالى ، فكـانت منـارة لأهل الأرض ، يمتـدّ فضـلها في كلّ باب من أبواب الخير والمعـروف ، وذكراً حسـناً في الملأ الأعلى في السـماء ، لا تعرف في حياتها عكراً ولا كدراً ..

الأســـرة العابـــدَة تعيش الانســـجام الأسريّ فيما بينها بأسْمى صوره ومعانيْه ، فهي كالجسد الواحد ، والـروح الواحـدة .. إنّها تعيش في حبّ ووئام ، وأمنٍ وسـلام ، وأنسٍ وبشر ، تتـــنزّل عليها السّـــكينة ، وتغشـــــــاها الرحمة ، وتحفّها الملائكة ، وتكلؤها بالليل والنهار ، والغـدوّ والآصـال ، ويغمرها الرضا والســــــعادة في جميع الأحوال .. وتقوم علاقاتها الاجتماعيّة كذلك على الإخلاص والنصح ، والاحترام والتقدير ، والشفقة وحبّ الخير ..

عرفت أنّ الحياة جـدّ ، ليست لعبـاً ولا عبثاً ، وأنّ هذه الـدار دار ابْتلاء ، فشـمّرت عن ساق العـزم والجـدّ ، ووفّت لله بالعهْد

، فجاءتها الــــدنيا خادمة راغمة ، ســــهلة ميسّــرة ، ونــالت سـعادة الآخــرة راضــية مرضيّة ، وعبّـاد الشـهوات حولها في غيِّهم ســادرون ، وخوضــهم يلعبــون ، وشــكِّهم يتردّدون ، يلهثون خلف السراب الكـاذب ، والبرق الخالب ، ويشقون في خدمة الدنيا آنـاء الليل وأطـراف النهـار ، ويفنـون فيها الأعمــار ، ثمّ يرحلــون عنها ، ولم يقضــوا منها لبانة ولا وطــراً ، فتشــتدّ نــدامتهم ، وتطول حسراتهم ، حيث لا ينفع الندم ، ولا تغــني الحســرَات ، ويتمنّــون العــودة إلى الــدنيا ، وهيهــات ! هيهــات ! لا يقبل منهم التمنّي والرجاء ..

الأســرةُ العابــدَةُ تهب المجتمع الأبنــاء الأسوياء النفّاعين ، الـذين لا يكونـون عبئـاً ولا بلاء ، يبشِّرون ولا ينفِّـرون ، ويجمعــون ولا يفرّقــون ، وييسّــرون ويرغِّبـونَ .. فهي مصـــدر أمن المجتمع وطمأنينته ، وســـرّ نجاحه وسعادته ..

الأسرةُ العابدَةُ هبة الرحمن لمن صدق العهد ، وأخلص الــودّ ، إنّها تقـــوم على دعــائم ، وتتميّز بمعــالم ، ودون الوصــول إليها مجاهدات ومكابدات ، ومحكّ الصــدق فيها الالتزام بالمنهج بلا عوج ، والاسـتقامة على الصــراط بلا تقصــير ولا شــطط ، لا

تنفع فيها الظنـون والأوهـام ، ولا الـدعاوى بغير برهـان ، يحظى فيها الآبـاء بالسـعادة العاجلة ، عنـدما تقـرّ أعينهم بأبنـائهم في هـذه الـدار ، ولـدار الآخـرة خـير للمتّقين الأبرار .

وما أروع تلخيص القـــرآن الكـــريم لمنهجها في بيانه المعجز ، ولفظه المـوجز ، بقوله تعـــالى : { .. **قُـــوا أنفُسَـــكُم وَأهلِيكُم نَـــاراً** .. (6) } التحـــريم ، إنّها أربع كلمـــات ، جمعت حقـــائق المنهج من أطرافها ، وأحكمت علاقاتها ، وشـــــادت بنيانها ..

الإسلام في حقيقته وشموله

الإســـلام حقيقة ضَـــخمة تملأ حيـــاة الإنســان كلّها ، وصــبْغة ربّانيّة يصــطبغ بها كيانه ، ومن أحسن من الله صبغة ، وصف الله تعالى بها أنْبيَاءَه ورسلَه ، وأثنى عَلَيْهم بتحقّقهم بها ، ودعـــــوة النـــــاس إليها ، ووصـــيّتهم بهَا، فقـــال تَعـــالى : { **وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الآخِــرَةِ لَمِنْ الصَّـــالِحِينَ** (130) **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : أَسْلِمْ ، قَالَ : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** (131) **وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُـوبُ : يَـابَنِيَّ ! إِنَّ اللــهَ اصْــطَفَى لَكُمْ الــدِّينَ ، فَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** (132) **أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَـوْتُ ، إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ : مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ؟ قَـالُوا : نَعْبُـدُ إِلَهَـكَ ، وَإِلَــهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْـحَاقَ ، إِلَهـاً وَاحِداً ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْـلِمُونَ** (133) } البقرة .

والإســلام حقيقة كونيّة كــبرى ، تهيمن على الوجــود من أصــغر ذَرّة فيه إلى أكــبر

مجــرّة ؛ فكــلّ ما في الســموات والأرض عبد مُطيع لله ، خاضع لأمـــــره ، مُسَــــبّح بحَمده ، لا يخرج عن طاعته ، ولا يستنكف عَن عبادته : { **أَفَغَيْرَ دِينِ اللـهِ يَبْغُـونَ .؟ وَلَـــهُ أَسْــلَمَ مَنْ فِي السَّـــمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعــــاً وَكَرْهــــاً ، وَإِلَيْـــهِ يُرْجَعُونَ** (83) } آل عمران .

{ **تُسَــبِّحُ لَـهُ السَّـمَوَاتُ السَّـبْعُ وَالأَرْضُ ، وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَــيْءٍ إِلاّ يُسَـــبِّحُ بِحَمْــدِهِ ، وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَـانَ حَلِيمـاً غَفُوراً** (44) } الإسراء .

{ **ويُسَبِّحُ الرعدُ بحَمدِهِ وَالمَلائِكَةُ مِن خِيفَتِهِ** .. (13) } الرعد .

والإســـــــلام في حقيقته العمليّة هو الخضــــوع لله تعــــالى في كــــلّ شــــأن ، والاستســــلام لأحكَامه في كــــلّ موقف ، فالمســلم الحــقّ يعْمل بــأمر الله تعــالى ، ويجتنب مَا نهى اللـهُ عنه ، ويخضع لأحكـام الله ، ويحتَكم إليه في جميع شئونه ، يقول الله تعــــالى : { **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُــونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لا يَجِــدُوا فِي أَنفُسِــهِمْ حَرَجــاً مِمَّا**

قَضَـيْتَ ، وَيُسَـلِّمُوا تَسْـلِيماً (65)ـ } النساء .

ويقول سـبحانه : { **إِنَّمَا كَـانَ قَـوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُــوا : سَــمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ** (51) } النور .

وعلى هـذَا درج الصـحابة والتـابعون ، وسـلف هـذه الأمّة الصـالح ، فتخلّـوا عن أهوائهم وحظـوظ أنفسـهم لله ، وأطـاعوا الله ورســوله في المنْشــطِ والمكــره ، وفي العسر واليسر ، وتلقّـــوا الأوامــــرَ للتنفيذ ، وتَعلّمــوا العلمَ للعمل ، وحرصــوا على رضوان الله في كلّ موقف ..

فما أمــروا بشــيء إلاّ اســتَجابوا ، ولا نُهُوا عن شيء إلاّ اجتنبـوا ، وما نَـزل فيهم حكم منَ الله ورسوله إلاّ استَسلموا إليه مطيعين ، وَعملوا به راضين ..

أمــروا بالتوحيد ، فهَــدموا الأصــنام ، وعبدوا اللهَ وحده ، وتخلّـوا عن كـلّ مظهر من مظــــاهر الشــــرك بالله .. وفرضت عليهم الصـلاة فأقاموها ، وأمـروا بالزكـاة فأدّوها ، وبالإمســاك عن شــهوات النفس في الصيامِ فأمسَكوا ، وبالتجرّد لله تعـالى

في الهجـــرة والحجّ فتجـــرّدوا ، وبـــذل الأموال والأنفس في سبيل الله في الجهاد فتنافسوا في ذلك وبذلوا ..

ونهـــــــاهم الله عن الخمر فأراقوها ، وعن الفحشـــــــاء فاجتنبوها ، وعن الربا فـــــتركوه ، وعن الميْسر فمنعــــوه .. لم يَعتـذروا عن شـيء من ذلك بما ألفـوه من عـــوج ، ولم يجـــدوا في امتثـــال الأمر ، واجتناب النهي من حرج ..

وفي سيرة سلف هذه الأمّة الصــالح ، جماعـات وأفـراداً ، وولاة ورعايا ، نمـاذج رائعة ، ومواقف مشـــــرقة من ذلك كلّه ، تْشهد أنّهم كَانوا المثل الأعلى في الالـتزام الصادق بدين الله تعالى ، والتمسّك به في كلّ شَأن ..

ـ رأى رسـول الله خاتمـاً من ذهب في يد رجل ، فنزعه فطرحه ، وقـــال : (**يعمد أحــدكم إلى جمْــرة من نَــار ، فيجعلها في يده ؟!**) .

فقيل للرجل بعدما ذهب رسول الله : خــذْ خاتمك انتفع به ، قــال : لا والله ، لا آخذه ، وقَد طرحه رسول الله " [1] .

1(?) ـ رواه مسلم .

ـ ولمّا كـان يـوْم أحد ، أقبلت امـرأة تســعى ، حتّى كــادت أن تشــرف على القتلى ، فكره النبيّ أن تراهم ، فقال : (المرأة ! المـرأة) أي أدركـوا المـرأة ، ولا تتركوها تقـترب من القتلى ، شـفقة عليها ..

قـال الزبـير بن العـوّام : فتوسّـمْت أنّها أمّي صـفيّة ــ أي بلغها أنّ المشْـركين قتلوا أخاها حمزة ، ومثّلوا به ، فهي تريد أنْ تراه ..

قال الزبَير : فخـرجت أسـعى إليْها ، فأدركتها قبل أن تنتهيَ إلى القتلى ، فلــدمَت في صــدري ، أي دفعتــني دفعــاً شـديداً ، وكـانت امـرأة جلـدة ــ أي قوّية شديدة ـ وقـالت : إليك عنّي لا أرض لك .! فقلت : **إنّ رسـول الله عــزم عليك أن لا تذهبي** .. **قال : فوقفَت** .. [1] .

ـ وتخلّف كعب بن مالك وصــاحباه عن غزوة العسرة بغير عذر ، فنهى رسول الله المســلمين عن كلامهم ، فما كلّمهم أحد طيلة أربعين يومــاً .. ثمّ أمــرهم بعد الأربعين أن يعتزلوا نسـاءهم ، فـاعْتزلوهنّ عشـرة أيّـام ، وتحمّلـوا هجـرَ المسـلمين

1(?) ـ رواه أحمد وأبو يعلى والبزار .

خمسين يومـاً ، وضـاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضـــاقت عليهم أنفســـهم ، حتّى تاب الله عليهم ، ففرحوا بذلك أشدّ الفرح ، وفــرح بهم المســلمون ، وأقبلــوا عليهمْ يكلّمونهم ، ويهنّئونَهم بتوبة الله تعالى ..

هكــذا كـان انقيَـاد سـلف هـذه الأمّة الصالح لأمر الله تعـالى ، وأمْر رسـوله ، عملــوا بالإســلام كَـاملاً ، فقطفــوا ثمـاره يانعة ، عزّةً وسيادةً ورفعَة ..

والإســلام الــذي عــزّ به المســلمون الأوّلونَ دين شامل لحيـاة الإنْسـان ، كامل تامّ .. لم يترك جانبـاً من جـوانب الحيـاة ، من عقيــدَة وعبــادات ، وتشــريع وأخلاق ، وسياسة واقتصاد ، واجتماع وعمران ، وما يتّصل بـذلك ، وما يتفـرّع عنه إلاّ ووضع له المنْهجَ الحكيم ، والخطّةَ الرشيدة ..

راعى الإسـلام جـانب الـروح ، فشـرع لها عبـادات تغـذّيها وتزكّيها ، وتصـلهَا بربّها تبارك وتعالى ، وتسمو بها ..

وراعى الإسـلام جـانب الجسد ، فـأمر بالعناية به ، ورعاية غذائه وكســـــــائه ، ونظافته وصـــحّته ، ومصـــالحه وحاجاته ، ونهَى أن يحمّلَ ما لايطيق ، وحــرّم كـلّ ما يؤذيه ، منْ طعام وشراب ، وجرحٍ وقتل ..

ووثّق روابط الأسـرة : فأوجب برّ الوالدين ، وصلة الأرحَام ، وبنى كيان المجتمع على دعائم قويّة من الأخلاق الكريمة ، والسيرة المستقيمة ، فندب إلى التحابّ والتراحم والتعاطف ، والمواساة والإيثار ، والإحسَان وإغاثَة اللهْفان ..

وأمـرَ بالصدق والأمانة ، والنصح والاستقامة ومعالي الأمور ، ومَكارم الأخلاق ..

وأحْكم الصلة بين الراعي والرعيّة ، بما أوجبه من الطاعة لوليّ الأمر في غير معصية ، والشعور بالمسئوليّة ، والسهر على مصَالح الأمّة ..

وأمر الإسلام بالوفاء بالوعد ، وحفظ العهْد ، حتّى مع غير المسلمين ..

فالمسلم الحقّ يلتزم بدينه في كلّ شأن ، ويتحلّى بفضائل الإسلام كلّها ، بلا إفراط ولا تفريط .. فلا يوغل في جانب ، ويهمل جانباً آخر .. لا ينْصرف إلى جانب الروح ، فيَلزم المسجدَ والعبادة مثلاً ، ويهْمل جانب الجسد ، فيقعد بغير عمل وكسب للرزق ممّا أحلّ الله ..

والمسلم الحقّ ابن ديْن ، وابن دنيَا : متعبّد بالليل ، فارس بالنهار ، زاهد في

الـــــدنيا بقلبه ، عامل لها بقالبه ، ملتمس لمرضـــاة الله تعـــالى في كـــلّ شـــأن .. لا تشـــغله دنيَا عن دين ، ولا روْح عن جسد ، ولا عَمل فرديّ عن عمل اجتماعيّ ، يخدم الأمّة ، ويحرص على تقـديم ما يعـود عليها بالخير والنفع ..

هذا هو الإسلام في حقيقته ومجْمله .. إنّه هوّيّة المسلم وانتمـاؤه ، ومَصـدر عزّته وسـعادته ، والبدهيّة الكـبرى الـتي تقـوم عليها حياته ، فـــأيْنَ المســـلمون منها .؟! وأيْن منها أبنـاءُ المسـلمين .؟! الفاقـدونَ لهـوّيّتهم وانتمـائهم ، المفتونـون بسـراب التيه والتغريب .؟!

إنّ على الآبـــاء والمـــرَبّين مســـئوليّة عظيمة ، أن يورّثوا الأبناءَ الإسـلامَ بحقيقته الشـــاملة الكاملة ، وأنْ يملئـــوا قلـــوبَهم بمحبّته وصـــدق الـــولاء له ، وأنْ يعلّمـــوهم أَنَّهم من خـــير أمّة أخـــرجت للنـــاس ، فليذكروا نعمةَ الله عليهم ، وليؤَدّوا شـــرطَ الخيريّة والاجتباء ..

إنّ على الآبـــاء والمـــرَبّين أن يورّثـــوا أبنـــاءَهم الاعـــتزاز بالإســـلام ، والتمسّـــكَ بمبادئه وقيمه والحـــــرص على نصـــــرته ،

والــدعوة إلى ســبيله ، ليعــودَ لهــذه الأمّة عزّها الذاهب ، ومجدها الغابر ..

ويــوْمَ يخــرج جيْلٍ من أبنَــاء الإســلام كذلكَ فارتقب عـزّاً للأمّة وسـيَادة ، ورفعة وريادة .. ويقولون متى هــوَ .؟ قل : عسى أن يكونَ قريباً ..

* أثر الإيمان بالآخرة في تحقيق السعادة للفرد والأسرة والمجتمع

إنّ عقيـدة الإيمـان بـالآخرة هي أعظم أساس لسعادة الإنسـان في حياته الفرديّة والأســـريّة والاجتماعيّة ، وهي أصل جميع فضائل الإنسان وكرامته وكمالاته . ولننظر في بيان ذلك بشيء من التفصيل فنقول :

ـ إنّ الأطفـال الـذين يمثّلـون نصف البشريّة تقريبـاً لا يمكنهم أن يتحمّلـوا تلك الحالات التي تبدو أمـامهم مؤلمـةً مفجعـةً من حـالات الأمـراض الشـديدة ، والمـوت وفـراق الأحبّة إلاّ بما يجدونه في أنفسـهم وكيـانهم الغضّ الرقيق من القـوّة المعنويّة ، الناشـئة عن الإيمـان بـالآخرة والجنّة .. ذلك الإيمـان الـذي يفتح لهم بـاب الأمل المشـرق أمـام طبـائعهم الرقيقة الـتي لا تتمكّن من المقاومة والصـــمود ، وتبكي لأدنى سبب .. فيتمكّنون بالإيمـان بـالآخرة من العيش بهناء وفـرحٍ وسـرور .. فيحـاور الطفل نفسه ، أو يحاوره والده أو المـربّي : " **إنّ أخــاك الصــغير أو صــديقك الحميم الـذي تـوفّي قد أصـبح الآن طيراً من طيور الجنّة .. وهو يسـرح**

الآن في الجنّة حيث يشــاء ، ويعيش أفضل من حياته هنا وأهنأ .. وستراه بإذن الله عندما تنتقل إليها .. " .

ولولا هذا الإيمـان بالجنّة لهـدم المـوت الذي يصيب أطفالاً أمثاله ، وكذلك يصـيب الكبار تلك القـوّة المعنويّة لهـؤلاء الـذين لا حيلة لهم ولا قـــوّة ، ولحطّم نفســـيّاتهم ، ودمّر حيــاتهم ونغّصـــها ، فإمّا أن تمـــوت أحاسيسهم ، وتغلظ مشاعرهم ، أو تحطّم نفسـيّاتهم ، وتشـوّه شخصـيّاتهم ، وتـدمّر حيـــاتهم ، ويصــــبحوا عناصر في المجتمع مشلولة العزيمة والإرادة ..

فيا أيّها الوالد المربّي .!

حـدّث طفلك عن الآخـرة والجنّة بما يتناسب مع ســــــنّه ومداركه ، فـذلك خـير ما يعـدّه لتحمّل شـدائد الحياة ولأوائها .

ـ والشباب المراهقـون الـذين يمثّلـون محور الحياة الاجتماعيّة وعمودها الفقريّ ، لا يهـدّئ فـورة مشـاعرهم وسـورتها ، ولا يمنعهم من تجــــاوز الحـــــدود إلى الظلم والتخــــريب ، والعبث والفوضى ، ولا يمنع طيش أنفسهم والانطلاق وراء نزواتها ، ولا

يـدفعهم إلى السـير الأفضل في علاقـاتهم الاجتماعيّة إلاّ الخـــوف من نـــار جهنّم ، وغضب الله تعــالى ونقمته .. ولــولا هــذا الخوف لقلب هؤلاء المراهقون الطائشون الثملون بأهوائهم ، وغرور قوّتهم وعافيتهم .. لقلبـــوا الـــدنيا إلى جحيم من الشـــرّ والفوضى ، والبغي والأذى ، ولحوّلـــــوا الحيـــاة الإنســانيّة الكريمة إلى حيـــاة حيوانيّة سـافلة ، تعجّ بالشـرّ والفسـاد ، وكـانوا شــرّاً على أنفســهم ومجتمعهم والإنسانيّة كلّها ..

ـ والشيوخ والعجائز الذين أدبرت عنهم مبـاهج الـدنيا ومتع الحيـاة ، وأصـبحوا كـلّ يــوم من أيـام حيـاتهم القليلة الباقية على موعد مع الآلام والأمــراض والمفاجــآت ، ويحسّــون بــالاغتراب عن الــدنيا ، وأنّهم ينتقلون من ضعفٍ إلى ضـعف ، ويقـتربون من قبـورهم رويـداً رويـداً ، إنّهم أحـوجُ ما يكونون في مثل هـذه الحـال إلى الشـفقة والرحمة ، والطمأنينة والسكينة ، والشعور بالحيــــاة الهادئة الهانئة .. لقد عــــادوا كالأطفال في ضعف القوّة وفتـور الإرادة ، مـــرهفي الحسّ والشــعور ، قد ضـــاقت عليهم الدنيا بما رحبت ، وربّما تمــادى بهم

وضـــعف النفس والقـــوى إلى درجة من المرض واليـأس لم يعـودوا معها يطيقـون البقاء في هذه الحياة ، فيفكّرون بالانتحـار ، للتخلّص ممّا هم فيه من حـــال .. ولكنّ الإيمـان بـالآخرة ، وما عند الله تعـالى من النعيم والتكريم ، وجزاء المؤمنين المتّقين ، يــأتي على أرواحهم كالبلسم الشــافي ، فيقــوّي رجــاءهم بالله تعــالى ، ويســمو بأرواحهم عن هذه الـدنيا المـدبرة الفانية ، ويوطّد علاقتهم بالآخرة المقبلة المزدهــرة ، ويعقد آمـــالهم بالله تعـــالى ، فيقـــوى تعلّقهم بالله ســـبحانه ، وتـــوكّلهم عليه ، وحسن ظنّهم بفضــــله وكرمه ، وجــــوده وإحســـانه ، وهو القائل ســـبحانه كما في الحديث القدسيّ : " **أنا عند ظنّ عبـدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ..** " .

ـ والأســرة الــتي هي دائــرة الفــرد وحصـنه الحصـين ، ومحـور المجتمع وركنه المتين ، لا سعادة لأحــدٍ فيها إلاّ بــالاحترام الجادّ المتبادل ، والوفـاء الـودود ، والمحبّة الصادقة ، والرحمة الدائمة والمودّة ، التي يلقاها من الطــــرف الآخر .. ولا أمل في ذلك إلاّ أن تقـوم على علاقة إيمانيّة تتّصل بالله تعــالى ودينه وشــرعه بــأوثق العــرا

وأزكاها ، وأجملها وأســــماها ، وأن تتّصل بــــالآخرة دار النعيم المقيم ، والجـــزاء العظيم ، فيحـــدّث الـــزوج نفسه : " إنّ زوجــتي هــذه رفيقة حيــاتي ، وســتكون زوجــتي في عــالم الخلد والأبد ، فلا ضــير عليها إن أصبحت الآن عجـوزاً ضـعيفة ، ما دامت تــزداد بالله إيمانــاً وعملاً صــالحاً ، فإنّها تســتوجب منّي كـلّ رعاية وتكـريم ، ووفاء ورأفة .. " وتحـدّث الزوجة نفسـها : " إنّ زوجي هـذا رفيق حيـاتي ، وسـيكون زوجي في عـــالم الخلد والأبد ، فلا ضـــير عليه إن أصبح اليوم شيخاً كبـيراً ضـعيفاً ، ما دام يـــزداد إيمانـــاً بالله تعـــالى وعملاً صــالحاً ، فإنّه يســتوجب منّي كـــلّ رعاية وتكريم ، وخدمة وعناية ، ووفاء ورأفة .. " وهكـذا لا تـزداد العلاقة بين الـزوجين على تطاول الأيّام والسنين إلاّ وثوقـاً ورسـوخاً .. بخلاف أولئك البهائميّين الذين لا يعرفون العلاقة الزوجيّة إلاّ علاقة جنسيّة شــهوانيّة ، فإذا ضعف أحد الطرفين أو مــرض تخلّى عنه الطــــــرف الآخر ، وتنكّر له ، وذهب يبحث عن سبل أخرى لقضاء لذّاته ونزواته ، ونسي ما كان يدّعي من المحبّة والمودّة .. وربمّا كـان من أحد الطـرفين من البغي

على الطــرف الآخر والغــدر به ، ما تأبــاه الحيوانات العجمـاوات ، وتـأنف عنه .. إنّها الأنانيّة القاتلة التي تفرضها الحيــاة المادّيّة ، الـــتي لا تعــرف حيــاة الــروح ولــذّتها وأشـواقها ، بل إنّها تحاربها ، ولا تـؤمن بها ..

وهكـذا ترشح سـعادة الحيـاة الأسـريّة على علاقة الـــرحم والقرابة ، وتتضـــوّع أنسام المودّة والرحمة في أرجـاء المجتمع المســـــــلم وأنحَائه ، وتتقلّب الأمّة في بحبوحة الســـــــعادة الوارفة وظِلالها ، ونسمات الجنّات ورياضِـها ، وتِلـكَ عاجل سـعادة المؤمـنين في هـذه الحيـاة ، قبل الانتقــال إلى الــدار الآخـــرة وما فيها من النعيم والتكريم ..

أفليس في هـــــذه الحيـــــاة الكريمة المطمئنّة ما يقـــدّم للعقلاء ذوي الألبـــاب والبصـائر دليلاً على الحيـاة الآخـرَة أشـبه بالدليل المادّيّ المحسـوس .؟! { **إنّ في ذَلِـكَ لَـذِكرَى لمَن كَـانَ لَه قَلبٌ ، أو ألقَى السمعَ وَهُو شَهِيدٌ** (37) } ق .

فليلق الســـمعَ علمــــاءُ الاجتمــــاع والسياسة والأخلاق ، من المعنيّين بشـئون الإنسان وأخلاقه واجتماعه ، وليبيّنوا لنا :

بماذا سيملأون هذا الفراغ القاتل .؟
وَمَاذا قدّموا لإسعاد الإنسان ، وإنقــاذه من شقوته وحلّ مشكلاته .؟
وماذا ينتَظـرون من البلاء الـداهم على البَشريّة .؟!
وبماذا سيداوون هـذه الجـروح الغـائرة العميقة ، التي لا تزداد مع الأيّام إلاّ تقيّحــاً وعمقاً .؟!

* الإسلام شريعة الحنيفيّة السمحَة

الإســـلام هوّيّة المســـلم وانتمـــاؤه ، والبدهيَّة الكـبرى الـتي تقـوم عليها حياته ، ولكنّها في الــــــوقْت نفسه هوّيّة غَائبة أو مغيّبة ، وبدهيّة مجهولة أو مشوّشة ، عنـــدَ كثـير من المسـلمين الـذينَ أخـذوا دينهم بالوراثة والتقليد ، ســـوَاء على مسْـــتوى الفهم ، أو على مســــــتوى الســــــلوك والممارسة .. وكـــذلك عنـــدَ أولئك الـــذين يقفون منْ دين الله موقفَ الرفض للاحتكـام إليه ، والعـــداوةِ له والصـــدّ عنه .. ومن ثمّ فـــإنّ حقيقة الإســـلام وهوّيّته بحاجة إلى توضـيح مفْهومَها وتعميقه ، وتبـيين معانيها وتفصـيلها ، وكشف ما يعارضـها ، ويخـرج عن حدودها وحقيقتها ، ليهلك من هلك عن بَيّنة ، ويحيا منْ حيَّ عن بيّنة ..

ـ فالإسلام هو الديْن الذي ارتضاهُ الله للبشـريّة منْ لـدن آدم عليه السـلام ، إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيّدنا محمّد ﷺ : { **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ** .. (19) } آل عمران ، { **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْـرَ الإِسْـلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِـرَةِ مِنْ الخَاسِرِينَ** (85) } آل عمران .

ـ **وحقيقة الإسـلام** : الاستسـلام لأمر الله تعالى ونهيه ، وطاعته في شئون الحياة كلّها ، يقول الله تعالى : { **وَإِذْ أَخَذَ اللــهُ مِيثَــاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ**

كِتَـابٍ وَحِكْمَـةٍ ، ثُمَّ جَـاءَكُمْ رَسُـولٌ مُصَـــدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ ، لَتُـــؤْمِنُنَّ بِـــهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ : أَأَقْرَرْتُمْ ، وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْـرِي ، قَـالُوا : أَقْرَرْنَا ، قَـــالَ : فَاشْـــهَدُوا ، وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ (81) **فَمَنْ تَـوَلَّى بَعْـدَ ذَلِـكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِـقُونَ** (82) **أَفَغَيْـرَ دِينِ اللـهِ يَبْغُـونَ ، وَلَـهُ أَسْـلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، طَوْعـاً وَكَرْهـاً ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** (83) } آل عمران .

ولا تُقْبَـــلُ دعـــوَى الإيمـــان بغـــير الاستسـلام لحكْم الله ورسـوله ، والرضا بكـلّ ما جـاء عن الله ورسـوله : { **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَـــجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لا يَجِـــدُوا فِي أَنفُسِـــهِمْ حَرَجـــاً مِمَّا قَضَـــيْتَ ، وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً** (65) } النساء .

إنّ الاجتهـاد سـاحته كبـيرة مفتوحة ، لمن كـــان أهلاً له ، ولكنّه لا يـــدْخل في القطعيّـات ، والبـدهيّات المسـلّمات ، إنّه يدخل في كلّ ما لا يضرّ اختلاف التنوّع فيه ، وما يختلف الموقف منه على حسب اختلاف العـادات والأعـراف ، لأنّه بُـنيَ في الأصل على العـرف والعــادة ، وما كـــان سبيله كذلك يغيّره العرف والعادة ..

وإذا لم يسلم الإنسان وجهه لله وهو محسن ، ويستجيب لطاعته واتّباع شرعه .. فلمن يستجيب .؟! ما البديل له عن ذلكَ .؟!

لقد عرفت الإنسانيّة بدائل كثيرة توجّه الإنسان إليها بالحبّ والرجاء ، والخوف والرهبةِ .. فهل كانت خيراً للإنسان من توجّهه إلى الله وحدَه .؟!

لقد عبد الإنسان الخارج عن طاعة الله الحجر والشجر ، والشمس والقمر ، وتذلّل للحيوان والجماد ، وأتفه الأشياء وأسخفها وأخسّها ، ممّا يُستحيا من ذكره ، وتَأباه كرامته .. ومنهم من ألحد في الله وعبد هواه ، أو عبد الطواغيت ، وأهواء الظالمين الكُبراء .. فهل أغنى ذلك عن الإنسان شيئاً ، أو حقّق له سعادة وأمناً .؟!

إنّ مزايا هذا الدين وخصائصه أكثر وأضخم من أن يتناولَها مقال ، أو يحيطَ بها بحث ، ولكنّ هناك مزيّة كبرى ، ينبغي أن لا يغفل الوالد والمربّي عن غرسها وتعهّدها والتأكيد علَيها ، وهي أنّ الإسلام شريعة الحنيفيّة السمحَة ، كما جاءَ نصّ ذلك في الحديث عن (**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ بِالْيَهُودِيَّةِ وَلا بِالنَّصْرَانِيَّةِ وَلَكِنِّي بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ**) [1] .

1(?) ـ رواه أحمد في المسند في باقي مسند الأنصار برقم / 21260/ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ .

" فهيَ حنيفيّة في العقيــدة ، ســمحة في التكـاليف والأحكـام ، وإنّما خصّـها الله بالســمَاحة والســهولة واليسر لأنّه أرادها رسـالة للنـاس كافّة ، والأقطـار جميعـاً ، والأزمان قاطبة ، ورسـالة هـذا شـأنها من العمـــوم والخلـــود ، لابـــدّ أن يجعل الله الحكيم في ثناياها من التيســـير والتخفيف والرحمة ما يلائم اختلاف الأجيـــــــــال ، وحاجات العصور ، وشتّى البقاع " [1] .

وإذا كانت وجهة الإسلام التيسير ورفع الحرج ، فكلّ من يبغي التشـديد والتعنّت ، إنّما يعاند روح الإسلام ، ومآله إلى هلاك وبوار ، وقد دعا عليه النبيّ بذلك ، فقـال : (**ألا هلك المتنطّعــون .! ألا هلك المتنطّعـون .! ألا هلك المتنطّعـون .!**) [2] ، قالها ثلاثــاً ، ليــدلّ على اهتمامه بخطر هـذا الأمر وآثـاره السـلبيّة على دين الله تعالى ..

وجـــاء في الحـــديث عن ابن عبّــاس رضي الله عنهما مرفوعـــــاً : (**إيّــــاكم والغلـــــوّ .! فإنّما أهلك من قبلكم الغلوّ**) [3] .

1(?) ـ العبادة في الإسـلام ، للـدكتور يوسف القرضـاوي ص/ 195/ .
2(?) ـ رواه مسلم وأبو داود وأحمد عن ابن مسعود .
3(?) ـ رواه مسلم .

وكان من شمائله الكريمة : " أنّه مَا خُيّر بين أمرين إلاّ اختار أيسرهما ما لم يكن إثمــاً ، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس عنه " [1] .

وعنـــــدما بعث معـــــاذ بن جبل ، وأبا موسى الأشـــــعريّ أمـــــيرين إلى اليمن أوصاهما بقوله : (**يسّـرا ولا تعسّـرا ، وبشّـــرا ولا تنفّـــرا ، وتطاوعا ولا تختلفا**) [2] .

ويحذّر النبيّ أمّته من مَغبّة التشــديد على النفس بغـــير ما كلّف الله به عبـــاده فيقول : (**لا تشدّدوا على أنفسكم ، فيشـدّد عليكم ، فـإنّ قومـاً شـدّدوا على أنفسهم ، فشــدّد الله عليهم ، فتلك بقاياهم في الصوامع والــديار** : { .. **وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَـــدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَـاءَ رِضْـوَانِ اللـهِ فَمَا رَعَوْهَا حَـقَّ رِعَايَتِهَا** .. (27)ـ } الحديد [3] .

قــال الإمــام الحافظ ابن كثــير رحمه الله : " وهذا ذمّ لهم من وجهين : أحــدهما : الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله ، والثـاني : في عـدم قيـامهم بما الـتزموه ،

1(?) ـ رواه البخاريّ .
2(?) ـ رواه البخاريّ .
3(?) ـ والحـديث ذكـره ابن كثـير في تَفسـيْر الآية الكريمـة ، عن مســند أبي يعلى ، وهو في كتــاب الأدب من ســنن أبي داود : باب في الحسد ، انظر العبادة في الإسلام ص/197/ .

ممّا زعمـوا أنّه قربة تُقَـرّبهم إلى الله عـزّ وجلّ " .

" وقوله : (لا تشـدّدوا يشـدّد عليكم) إخبَار بأنّ تشديد الإنسان على نفسه سبب لتشـــــديد الله عليه . وتشـــــديد الله إمّا تشْريعيّ تكليفيّ ، وإمّا تشديد كوْنيّ قدريّ وفقاً لنظَام الله في الأسبَاب والمسبّبات ، فالتشديد بالشرع ، كمن يشدّد على نفسه بالنــذر الثقيل فيلَزمه الشــرع الوفــاء به . والتشـــديد بالقَـــدر ، كفعل أهل الـــتزمَّت والوسوسة ، شدّدُوا على أنفسهم ، فشـدّد القــدر عليهم ، حتّى اســتحكم ذلك فيهم ، وصار صـفة لازمـة لهم ، وما ظلمهم الله ، ولكن ظلموا أنفسهم " [1].

فعلى الوالد والمربّي أن يَغـرسَ هـذه الحقـــــــائق في نفس الطفل والناشئ ، ويتعهّـــدها بالتوجيه والرعاية ، ويؤكّد عليها في كلّ مناسبة ، لينشأ الطفل نشأة سويّة ، بعيداً عن الغلوّ والتطرّف ، يأخذ من دين الله بما كلّف الله به عباده دون تنطّع ، ولا تشديد ..

1(?) ـ العبادة في الإسـلام ، للـدكتور يوسف القرضـاويّ ص/ 198/ .

من أحكام الحنيفيّة السمحة

التكـــاليف الإلهيّة كلّها أمانـــات ، يكلّف الإنســـان بحسن رعايتها ، وسيُســـأل عنها يـــوم القيامة ، ووجه عـــدّها أمانـــات : أنّها تشْـــترك مع الأمانة المادّيّة المعروفة في وجـــوب المحافظة عليها كما هي ، وعـــدم التغيير أو التبديل في شـــيء منها ، وأدائها متى طلبها صاحبها ، كاملة غيرَ منقوصة ، وأن يراعي المكلّف الأحوال الخاصّـة لها ، كما يريد الله تعـــالى من عبـــاده ، وكما يحبّ الله تعالى ويرضى ..

وَإذ كـــانت التكـــاليف الإلهيّة أمانـــات ، فهي ثقيْلة على النفس شديدة ، وَإذ كانت شريعة الله تعـــالى حنيفيّة ســـمحة فهي ميسّرة على كلّ مكلّف لا حرج فيهـــا ، ولا إعنـــات ، ولا تكليف فيها فـــوق الطاقة ، وهذا ما يطبع شريعة الله كلّها ويميّزها ..

وإذا أردتُّ أن أقدّم نمَاذج عن ســماحة أحكـــام الشريعَة لضـــاق بي رحب القـــول والـــوقتِ والورق ، ولكنّـني ألمح إلماحـات سريعة إلى بعضـها ، وقبل أن أقـدّمَ بعض

الأمثلة أحبّ أن أذكّرَ ببعض القواعد الأساسـيّة ، والحقـائق المهمّة في هـذا الباب ، وهي ممّا امتنّ الله به على عبـاده ، ومن خصائص هذا الدين ومزاياه :

1 ـ شمول التيسير ورفْع الحرج جميع جوانب الشريعة وأبوابها ، وعدم اقتصـاره على جانب دون آخر ، والنصّ القـــرآنيّ : {.. هو اجتبـــاكم ، وَمَا جَعَـــلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ .. (78) } الحج ، يشـمل الدين كلّه .

2 ـ ليس في شـريعتنا تحـريم شـيء من الطيّبات عقوبة للناس ، كما كان ذلك في شرائع سابقة ، لظروف خاصّة .

3 ـ إنّ الله يحبُّ أن تُـؤتَى رُخصُـه ، كما يكره أن تُؤتَى معْصيته .

4 ـ الأصل في التكـاليف الإلهيّة أنّها معقولة المعـــنى ، بيّنة الحكم والأهـــداف والمقاصد .

5 ـ أنّ التكليـف الشـرعيّ يـدور مـع الوسع والاستطاعة وُجوداً وَعدماً .

فمن النماذج فيدين الله على التيسير ورفع الحرج :

1 ـ مشروعيّة قصر الصلاة ، والجمع بين الصلاتين في السفر .

2 ـ مشروعيّة التيمّم ، عند فقد المـاء ، أو العجز عن استعماله .
3 ـ صـلاة المـريض على حسب استطاعته .
4 ـ بنـاء أحكـام الطهـارة ، والحكم بالنجاسة على اليقين ، والتيسـير ورفع الحرج .
5 ـ مشـروعيّة المسح على الخفّين ، وعلى العصابة والجبيرة .
6 ـ الترخيص في الفطر في رمضـان للمريض والمسافر ، والمرضع والحامل .
7 ـ لا تكليف بـالحجّ مع عـدم الاستطاعة ، وهي القـدرة الماليّة والبدنيّة .
8 ـ التيسـير في المعـاملات الماليّة ، وقيامها على تحقيق المصـالح الشـرعيّة الحقيقيّة للمكلّفين ، ودفع المفاسد عنهم ، والتيسير ورفع الحرج .
9 ـ والقاعـدة العامّة في دين الله أنّ الأصل بـراءة الذمّة ، والأصل في الأشـياء الإباحة .
10 ـ ومن أعظم مـا تتجلّى فيه رحمة الإسـلام وتيسـيره ، ورفعه للحـرج عن العبـاد : ما شـرع من أحكام للرفق والرحمة بالنسـاء ، إذ لم يكلّفهنّ الله تعـالى بقضـَاء ما يفـوتهنَّ من صـلوات

بســـبب الحيض أو النفـــاس ، بينما كلّفن بقضـاء الصـيام ، لأنّه لا يتكـرّر كالصـلاة ، ورخّص لهنّ بالفطر في رمضان في حـال الحمل أو الرضاع ، إذا خفن على أنفسهنّ ، أو الطفل أو الجنين ، كمـا كفل الإسـلام لهنّ العيش الكريم بما أوجب على الرجل من النفقة على المـــــرأة ، ولم تكلّـــــفْ بالنفقة على الرجل ولَو كانت غنيّة .

وعلى قَـدرِ ما يفقهِ الإنسـان دين الله وشــرعه يــزداد يقينــاً وبصــيرة أنّ هــذه الشريعة مبناها على التيسيرِ على العباد ، ورفع الحـــرج عنهم ، فلا يرضى التشـــديد على نَفسِه ، ولا على أحدٍ من عبــاد الله ، إذ ليس في التشــــديد مزيدُ تقـــــوى أو اسـتقامة ، وإنّما هــو التنطّع الــذي يقــود صــاحبه إلى الغلوّ ، وقد نهى النــبيّ عن ذلك أشدّ النهي فقال : (هلك المتنطّعون) قالها ثلاثاً [1] ، وقد قام هدي النبيّ في كلّ شـأن من الشـئون على اختيـار أيسـر الأمرين مَا لم يكنْ إثمـاً ، فـإذا كـان إثمـاً كان أبعد الناس عنه .. [2] .

وكــان يــأمر بــالرفق ، ويحثّ عليه ، وينهى عن العنف ، وينفّر منه ، ويقـول : (

1(?) ـ رواه مسلم وأبو داود وأحمد عن ابن مسعود .
2(?) ـ رواه البخاريّ 6/419 و 420 ، ومسلم برقم /2327/ .

إنّ الرفق ما وضع في شـــــيء إلاّ زانه ، وما نزع من شيء إلاّ شانه) [1] .
فعلى الوالد والمرَبّي أن يغـــرس في نفس الطفل والناشئ هذا الفهم لسـماحة الإسـلام فيما شـرع من التكـاليف الإلهيّة والأحكام ، وأنّها في طاقة المكلّف ووسعه ، ولا يقصد بها إرهاقه ولا إعناته ، وإنّمـــا هي سـرّ إصـلاح الحيـاةِ الإنسـانيّة ورقيّها وتهذيبها ، وهي سرّ سعادة الفـرد وفلاحـه في الدنيا ، وفوزه ونجاته في الآخرة ..
ومن ثمّ فليس من تقـــوى اللــــه والتمسّــــك بدينه أن يشقّ المكلّف على نفسه ، ويكلّفها ما لا طاقـــــةَ لها به .. ويظنّ أن ذلك يقرّبه إلى الله أكـثر : { مَا يَفْعَـلُ اللـهُ بِعَـذَابِكُمْ إِنْ شَـكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ، وَكَانَ اللهُ شَاكِراً عَلِيماً (147) } النساء .

1(?) ـ رواه مسلم برقم /2594/ .

لماذا بُني الإسلام على هذه الأركان الخمسة .؟

إنّه سؤال قَد يَرد على فكر الإنسان فلا يَعلم له جَواباً ، وحدّثني بعض الإخوة المعلّمين أنّه سئل هذا السؤال من قبل بعض طلاّبه ، فلم يستطع أن يقدّم الإجابة المقنعة المناسبة .. والحَقّ أنّه هذه الأركان الخمسة أركان جامعة للدين كلّه ، وكلّ ركن منها بمثابة باب من أبوَاب الإسلام ، مَن دخله دَخل إلى جانب منْ هذا الدين وأحكامه وآدابه ، ومن عطّله عطّل جانباً من الدين بمَا فيه من أحكام وآداب ..

فإعلان الشهادتين أصلٌ لأركان الإيمان ، ومَا يتّصل بهَا منْ حقائق الإيمان القَلبيّة ، من حبّ الله وَخشيته ، والإنابة إليه والتوكّل عليه ، والخوف منْه والرجَاء ، والشوق والرضا ، وما أشْبه ذلك ..

وركن الصلاة أصل عَمليّ لتحقيق الصلة بين العبْد وربّه ، وعبادة الله تعالى ، التي هي حَقّ العبوديّة على العباد : أنْ يعبدوا الله ولا يشركوا به شَيئاً ، والصلاة هي الترجمة العملِيّة لركن الشهَادتين ، ومن ثمّ فقَد كانتْ عماد الدين ، مَن أقَامها

فقدْ أقَـام الـدين ، ومن هـدمها فقد هـدم الدين .. ويـدخُلُ في الصـلاة ، وجـزء منها : الذكر والدعَاء وتلاوة القرْآن ..

وركن الزكـاة أصـلٌ لتَحقيق الصلَة بيْن الإنسان وأخيه الإنسَان ، وهي الصـلةُ الـتي أراد لها الإسـلامُ أنٍ تقـوم على المـودّة والرحْمة ، والتعَاطف والتعَـاون ، وأن يحبّ المؤْمن لأخيه المـؤمن ما يحبُّ لنفسه ، ويكـره له مَـا يكْـره لنَفسِـه ، وأنْ يشـعرَ بحاجات المسْلمين ، ويسعى في مَصالحهم ، ويؤدّيَ حقوقَهم ، ويكفّ الأذى عنهم ..

وركن الصـوم أصلٌ لتهْـذيب النفس وتربية الضـمير ، ورقيّ الـروح ، وإعطائها حقّها من العبادة ، وذوق لذّة الطاعة ، وهو أصل لهذه المعاني ، كما أنّه يتّصل بحقائق الإيمان اتّصالاً وثيقاً ؛ فرمضان شهر الصبر ، وشهر الشكر ، وترقّي المؤمن في معارج التقوى .

وهـذه الأركـان الثلاثة تجمع من جهـةٍ أخـرى أنـواع الحقـوق ، الـتي تتّصل بحيـاة الإنسـان ؛ فحـقّ اللـه على الإنسـان يتمثّل بالصلاة ، وحقّ الإنسان على أخيه الإنسـان يتمثّل بالزكاة ، وحقّ الإنسان على نفسـه ، أو حقّ نفسه عليه يتمثّل بالصوم ..

وركن الحجّ يعدّ عبـــادة جامعة ، ففيـــه التنسّـــك والتعبّد ، والـــذكر والـــدعاء ، بما يشبه الصلاة ، وفيه بذل المـال وإنفاقه في سبيل الله ، بما يشبه الزكاة ، وفيه تهـذيب النفس ، ورقيّ الـــروح بما فيه من صـــلة بالله تعالى ، وتجرّد عن الــدنيا وما فيها بما يشــبه الصــيام .. ويزيد الحجّ عن ذلــك كلّه أنّه عبـادة على مسـتوى الأمّـة كلّهـا ، وهـو أصل للجهاد في سبيل الله تعالى واجتمــاع المؤمـنين على نصـرة دينهم ، وفعل الخير، والتعاون على البرّ والتقوى ..

وفي كلّ ركن من هذه الأركان حظّ ممّا في الأركـان الأخـرى ، ولكنّ الجـانب الـذي أشــرت إليــه أبــرز فيها من غــيره وأظهر ؛ فالصـــلاة فيها تواصل بين المؤمـــنين ، كما في صــلاة الجماعة ، وفيها تهــذيب للنفس كما أشـــار إلى ذلك قوله تعـــالى : ﴿ وَأَقِمْ الصَّــلاةَ ، إِنَّ الصَّــلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَــاءِ وَالمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللـهِ أَكْبَـرُ ، وَاللـهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45) ﴾ العنكبوت .

والزكاة فيها الصلة بالله تعـالى ، إذ هي عبـادة تـؤدى بنيّـة التقـرّب إلى الله تعـالى وابتغاء مرضاته ، وفيها جانب نفســيّ ، وهو تطهير نفس المــزكّي ، كما أشــار إلى ذلك

قوله تعــالى : ﴿ خذ من أمــوالهم صــدقة تطهّرهم ، وتزكّيهم بها .. ﴾ التوبة .

والصيام فيه الصـلة بالله تعـالى ، إذ هو عبادة خفيّة عن الخلق ، تؤدى بنيّة التقـرّب إلى الله تعـــالى وابتغـــاء مرضاته ، وفيه الصــلة بالآخرين ، إذ يصــوم المــؤمن مع النـــاس ، ويفطـــر معهم ، فيحسّ بانتمائه للأمّة ، وحـــــال إخوانه من الفقــــراء والمساكين ، فتمتدّ يده بالإحسان إليهم ..

وأهمّ النتـائج الـتي نخلص إليها أنّ من أتقن هذه الأركـــــان ، وأدّاها بأحكامها وحدودها ، وسننها وآدابها أتقن إسلامه كلّه ، وكـانت عونـاً له على ذلك ، ومن فـرّط بواحد من هذه الأركان ، فقد فـرّط بـأنواع كثـيرة من الصـالحات الـتي تـدخل تحتها ، وعرّض إسلامه للخطر .. فمن الخطأ البيّن أن يظنّ ظانّ أنّ الخلل ينحصر في الـركن الذي يـترك أو يقصّـر فيه فحسب ، وإنّمـا كلّ ركن من هذه الأركان يتّصل به من بناء الإسـلام وأحكامه ما يشـدّ عـراه ، ويوثّق أجزاءه .. فأتقن أخي المؤمن هذه الأركان ، بشـروطها وأركانها ، وواجباتهـا وسـننها ، وحكمها وآدابها ، تكن عوناً لك على إتقـان إسلامك ، وسرّ سعادة أيّامك ..

وفي ظـلّ هذا الفهم لأركـان الإسـلام الخمسة ، وعلاقتها بأحكام الشريعة كلّهـا ، ينبغي أن نفهم الأحاديث النبويّة الشريفة ، الـــتي تؤكّد على أهمّيّة التمسّــك بهـــذه الأركان ، وأنّ من أقامها دخل الجنّة ، ونجا من النـــار ، ومنها ما جـــاء في الحـــديث الصحيح عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْـدِ اللـهِ قـال : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ مِنْ أَهْلِ نَجْـدٍ ، ثَائِرُ الرَّأْسِ ، نَسْمَعُ دَوِيَّ صَـوْتِهِ ، وَلا نَفْقَـهُ مَا يَقُولُ ، حَتَّى دَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَـةِ ، فَقَـالَ : هَـــلْ عَلَيَّ غَيْـــرُهُنَّ ؟ قَـــالَ : لا ، إِلاّ أَنْ تَطَّوَّعَ ، وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ ، فَقَالَ : هَـلْ عَلَيَّ غَيْـــرُهُ ؟ فَقَـــالَ : لا ، إِلاّ أَنْ تَطَّوَّعَ ، وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ الزَّكَاةَ ، فَقَالَ : هَـلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا ؟ قَالَ : لا إِلاّ أَنْ تَطَّوَّعَ ، قَالَ : فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ : وَاللهِ لا أَزِيدُ عَلَى هَذَا ، وَلا أَنْقُصُ مِنْهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللـهِ : أَفْلَحَ إِنْ صَـــدَقَ) . وفي رواية عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ : (أَفْلَحَ وَأَبِيهِ إِنْ صَـدَقَ ، أَوْ دَخَـلَ الجَنَّةَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ)[1] .

1(?) ـ رواه مسلم في كتاب الإيمان برقم /12/ .

فعلى الآبــاء والمــربّين أن يلاحظوا في تربية الأطفـال على هـذه الأركـان الخمسة ارتباطها الوثيق بأحكام الإسلام كلّهــا ، كيْلا نـــرى ســـلوك الناشئ في مســـتقبل أيّامه يعاني من التنــاقُض الصارخ بين موقفه من هذه الأركـان ، وسـلوكه ومواقفه من سائر الأحكام ..

علوّ الهمّة في العبادة

الإسلام يربّي المسلم على علوّ الهمّة في كلّ شيء من أمر الدين أو الدنيا ، وعُلوّ الهمّة يقتضي أن يحرصَ المؤمن على حسن العمل وكماله ، والرغبة بفعله في أوّل وقته ، والاجتهاد في تجويده وإتقانِه ، كما يحرص على الاستزادة منه ، فيما يقبلُ الاستزادة ، ويأخذ بالعزيمة في أغلب أحواله .

ومن أهمّ ميادين ذلك : العبادة بمفهومها الخاصّ والعامّ ، وحياة المؤمن وعمره كلّ ميدان رحب للعبادة .. والمسلم الفاقه بدينه يوازن دائماً بين الفضائل ، ويختار أرجحها في ميزان الله ، وأحبّها إليه سبحانه .

وعلوّ الهمّة في العبادة لا يخرج المسلم عن التوازن والاعتدال ، وتقديم الأهمّ على المهمّ ، وترجيح المصالح العليا على ما دونها .. كمَا أنّ الاجتهاد في العبادة لا يعني الغلوّ في الدين ، وفرق بين المفهومين بعيد .

ومنْ يطالع حياة الصحابة والتابعين ، ومن تبعهم بإحسان يجد نمَاذج لا تحصى

كثرة وعدّاً من شغفهم بالعبادة ، واجتهادهم فيها ، وعلوّ هممهم في الأخذ من كلّ غنيمة من أبواب العبادات بسهم ، فمن نماذج ذلك ما روي عن الحارث بن مالك الأنصاريّ أنّه مرّ بالنبيّ فقال له : كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقّاً ، قال : انظر ما تقول ، فإنّ لكلّ قول حقيقة ، فما حقيقة إيمانك .؟ قال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأنّي أنظر عرش ربي بارزاً ، وكأنّي أنظر إلى أهل الجنة ، يتزاوَرُون فيها ، وكأنّي أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها ، قال : يا حارثة ! عرفت فالزم) [1] .

وعن أنس أنّ النبيَّ لقيَ رجلاً يقال له : حارِثَةُ ، في بعضِ سِككِ المدينةِ ، فقالَ : كيفَ أصبحتَ يا حارثةُ ؟ قال : أصبحتُ مؤمناً حقّاً ، قالَ : إنّ لِكلِّ إيمانٍ حقيقةً ، فما حقيقةُ إيمانِكَ ؟ قالَ : عزفَتْ نفسِي عن الدنيا ، فأظمأتُ نَهارِي ، وأسهرتُ ليلي ، وَكأنّي بعَرشِ رَبّي بارزاً ، وكأنّي بأهلِ الجنّةِ في الجنّةِ ، يَتنَعّمُونَ فيها ، وكأنّي بأهلِ النارِ في النارِ ، يُعذّبُون ،

1(?) ـ رواه الطبراني في الكبير ، وفيه ابن لهيعة .

فقال النبي : أصبتَ فالزم ، مُؤمنٌ نَوّرَ اللهُ قلبَه) [1] .

وعنْ أنسٍ قال : أُصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَهُوَ غُلامٌ ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ إِلَى النَّبِيِّ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي ، فَإِنْ يَكُنْ فِي الجَنَّةِ أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ ، وَإِنْ تَكُ الأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ . فَقَالَ : وَيْحَكِ أَوَهَبِلْتِ ! أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ ! إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ ، وَإِنَّهُ فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ) [2] .

ومن توازن المسلم وعلوّ همّته في العبادة أن يحسن الجمع بين نوافل العبادات بمفهومها الخاصّ ، وبين الواجبات الاجتماعِيّة ، وهي من شعب العبادات بمفهومها العامّ ..

إذ كثير من الناس عندما يولع بنوع من العبادة بمفهومها الخاصّ يهمل أنواعاً أخرى من العبادات بمفهومها العامّ ، وقد تكون في حكم الواجبات الكفائيّة ، فهي أرجح منزلة ممّا يولع به من نوافل الأعمال .

ومن أروع النماذج في حياة الصحابة عن ذلك ما جاء في الحديث الصحيح عَنْ

1(?) ـ رواه الــبزار وفيه يوسف بن عطية لا يحتج به ، كما قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد 1/57 .
2(?) ـ رواه البخاري في كتاب المغازي برقم /3683/ .

أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ : (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ اليَوْمَ صَائِماً ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا . قَالَ : فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا . قَالَ : فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِيناً ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا . قَالَ : فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضاً ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : (مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلا دَخَلَ الجَنَّةَ) [1] .

فانظر إلى علوّ همّة أبي بَكر كَيف جمع فِي يوم واحد بين هذه الفَضائل والأعمال الصالِحة ، ولم تَمنعه فضيلة عن أخرى ، كما لم يحرص على باب من أبواب الخير ، ويزهد في غيره ، كما يفعل بعض الناس .

لقد كان أصحاب رسول الله رهباناً بالليل ، فرساناً في النهار ، أصحاب همم رفيعة في عبادة الله ، والتقرّب إليه بما يحبّ سبحانه ، ولم يفهموا العبادة على نوع وَاحد من أنواعها أو مجالاتها ، وإنّما ضربوا في غنيمة كلّ بسهم ، وكان لهم في كلّ باب سبق ، فكانوا خيرَ هذه الأمّة بعد نبيّها ، وأسوة حسنة للناس منْ بعدهم .

1(?) ـ رواه مسلم في كتاب الزكاة 1707 .

فعلى الوالدين والمربّين أن يحبّبوا الأطفال بالعبادة ، ويغرسوا فيهمْ علوّ الهمّة فيها ، والحرْص على أن تؤدّى على أحسن وجوهها ، وألاّ يَقْتصرَ اجتهادهم على نوْع واحد منها ، ليكونوا من العابدين الذين ينالُهم مدح الله تعالى وثناؤه في محْكم كتابه ، وليرَ منهم الطفْل في ذلك كلّه الأسوة الحسنة له ، التي تؤثّر في عقله وقلبه وسلوكه ما لا تؤثّره الكلمات وأبلَغُ المواعظ ..

* الإيمانُ والعبَادة .!

الإيمـــان هبة إلهيّة كريمة ، تمْنحُ العبد القــوّةَ والعزيمــةَ ، والســعادةَ والســكينةَ ، وراحةَ القلب والطمأنينة .. والعبادة مظهَرُ الإيمــان وعُنوَانُه ، وروحُه وحقيقتُه وبرهانُه ، وهو الــدافع إليها ، البــاعث القــويّ على الاجتهــاد فيها ، والحـــرص عليها .. وكمَا لا يُتصوّر للإنسان وجود بغير روحه وجسـده ، فكذلك لا يتصوّر للإيمان وجود بغير العبادة ، بمفهومهَا الشامل الجامع ..

وإنّ مَن يتــدبّر كتــاب الله تعــالى يجد أنّ الله جلّ وعلا ربط بين الإيمـان والعمل الصـالح في كــلّ مناســبة ، فلا يــذكر الــذين آمنــوا إلاّ ويعقبهم وصــفُ : " وعملــوا الصــالحات " ، ولا يـــذكر الإيمــــان إلاّ وتربط به بعض الأعمـــال الصالحة ، وقد تكـرّر ذلك في القـرآن أكـثر من خمســين مــرّة ، ممّا يؤكّد هــذه الحقيقة ، ويقدّم لها أوضحَ برهان ..

وقد جــــاء ذكر العمل الصــــالح في القرآن الكريم مطلقــاً بغـير قيد ، ليشــملَ كــلّ عمل قــام بِه الإنســان وفق دين الله تعــالى وشــرْعه مُبتغيــاً بــذلك وجــهَ الله ومرضاته ، يقول الله تعالى : { **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ ، وَأَقَـامُوا الصَّلاةَ ، وَآتَوْا الزَّكَـاةَ ، لَهُمْ أَجْـرُهُمْ**

عِنْــدَ رَبِّهِمْ ، وَلا خَــوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (277) } البقرة .

وهنا يجتمع مفهــوم العبــادة في دين الله تعـالى بسـعته وشـموله ، مع مفهـوم العمل الصـالح ، ويحــقّ للإنســان أن يجــزم أنّهما مترادفان ..

والإيمان والعمل الصـالح شَـرط لنفي الحـرج والجنـاح ، على المـؤمن فيما يأكل ويشــربُ ، ممّا أحــلّ الله وأبــاح لعبــاده ، يقــول الله تَعــالى : { **لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ جُنَـاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ، إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ ، ثُمَّ اتَّقَـوْا وَآمَنُــوا ، ثُمَّ اتَّقَـــوْا وَأَحْسَــــنُوا ، وَاللـــهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** (93) } المائدة .

وأهل الإيمـــــان والعمل الصـــــالح موعــودون من الله بـالتمكِين في الأرض ، كما يقــول تعـالى : { **وَعَـدَ اللـهُ الَّذِينَ آمَنُــوا مِنْكُمْ وَعَمِلُــوا الصَّــالِحَاتِ ، لَيَسْـــــــتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْـــــــتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَـــى لَهُمْ ، وَلَيُبَــدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْــدِ خَــوْفِهِمْ أَمْنــاً ، يَعْبُــدُونَنِي لا يُشْــرِكُونَ بِي**

شَـيْئاً ، وَمَنْ كَفَـرَ بَعْـدَ ذَلِـكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ (55) } النور .

وهمْ موعودون بتكفير السـيّئات ، وأن يجــزيَهم الله أحسن الجــزاء ، كما يقــول تعـــالى : { **وَالَّذِينَ آمَنُـــوا وَعَمِلُـــوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَـيِّئَاتِهِمْ ، وَلَنَجْـــزِيَنَّهُمْ أَحْسَـــنَ الَّذِي كَـــانُوا يَعْمَلُونَ** (7) } العنكبوت .

وهم قلّة في النــاس نَـادرة ، كما هي المعادن النفيسة الثمينة : { ... **إلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَقَلِيــلٌ مَا هُمْ** .. (24) } ص .

وهم مَحـــــــلّ عناية الله ورعايته ، إذ يخرجهم في الدنيا مِنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ ، ويــدخلهم في الآخــرة جَنَّاتٍ تَجْــرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، كما يقول تعــالى : { **رَسُــولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَــاتِ اللــهِ مُبَيِّنَــاتٍ ، لِيُخْـرِجَ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَمَنْ يُــؤْمِنْ بِاللــهِ وَيَعْمَــلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَـارُ ، خَالِــدِينَ فِيهَا أَبَــداً ، قَــدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً** (11) } الطلاق .

والعلاقة بين الإيمـان والعمل الصـالح علاقة طرديّة لا تتخلّف ، فكلّما قـوي الإيمان نَشِـطَ الجسد إلى العمل الصـالح ، وقـويت رغبته ، وكلّما ضعف الإيمـان فـتر الجسد عن العمل الصالح ، وضعفت همّته ، وهـذا ما يـدعو الوالد والمـربّي إلى أن يعتـنيَ بإيمـان الطفل والناشئ ، غرسـاً وتعهّـداً ورعايـةً ، لأنّ الإيمـان هو المُرتكـزُ الأوّل في بنـاء شخصـيّة الإنسـان وتقـويم سُـلوكه ، وعلّة أنـواع الاختلالات الفكريّة والسلوكيّة في حيـاة شـباب الأمّة اليـوم ، إنّما هو ضعف الإيمـان واليقين ، أو اعتلاله وفساد قصْده .

وقد طفحت آيات الكتاب العزيز ببَيـان هـذه الحقيقة وتأكيـدها ، فمن ذلك قـولُ الله تعالى فيمن ينكص عن العمل الصـالح ، والالـتزام بـدين الله : { .. **أفتؤمنـون ببعض الكتـاب ، وتكفـرون ببعض ، فما جـزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خـزيٌ في الحيـاة الـدنيا ، ويـوم القيامة يـردّون إلى أشـدّ العـذاب ، وما الله بغَافلٍ عمّا تعملـون** (85)ـ } البقرة .

وعندما أخذ الله ميثاق بني إسْـرائيل ، ورفع فوقهم الطور ، وقيل لهم : خـذوا ما آتينـاكم بقـوّة واسـمَعوا ، فقـالوا : سـمعنا وعصـينا ، قـال الله تعـالى فيهم : { .. **وأشـربوا في قلـوبهم العجـلَ بكفـرهم ، قل : بئسَـما يـأمركم به إيمـانكم ، إن كنتم مؤمـنين** (93)ـ } البقرة .

وبعد ؛ فـإنّ على المـربّي أن يركّز جهوده الصـادقة المخلصة على أن يُـترجَم الإيمـان في حيـاة الطفل والناشئ إلى سـلوك عمليّ صـالح ، يعمّ خـيره ، وتتّسع آفاقه ، ولا يقتصر على جـانب من جـوانب حياته ، وأن يعلّم الطفل والناشئ أنّ العمل الصالح عبادة ، وربّما كان أحبّ إلى الله من نافلة الصـلاة والصـيام ، لأنّه أنفع للعبـاد ، وأعظم أثـراً في حيـاتهم .. وأن يحبّب بالأعمـال الصـالحة ، ويـدرّب عليها ، حتّى له عـادة راسـخة ، وجـزءاً من شخصيّته وسلوكه .

وممّا ينبغي أن يغـرس في نفس الطفل والناشئ أنّ من اتّبع غير منهج الله تعالى معتقداً أنّه أحسن أو أعدل من منهج الله ، فقد أشرك في عبادة الله وتوحيده ، ونجد مصداق ذلك في كتاب الله عزّ وجـلّ

، إذ يقول الله تعالى : { **ألم أعهد إليكم يا بـني آدم أن لا تعبـدوا الشـيطان إنّه لكم عــدوّ مــبين** (60) **وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم** (61) } يس ، ويقــول تعــالى : (.. **وإنْ أطعتُمُوهُم إنّكُم لَمُشرِكُون** (121) } الأنعام .

فإذا أدّى الوالد والمربّي هذه الرسـالة فإنّه يكـون قد قـام بمسـئوليّة تحصـينيّة للطفل تقيه من تيّارات المسخ والتشويه ، التي تستهدف كيان الأمّة ، وشخصيّة جيلها المعاصر ..

* العبادات أمانة !

التكـاليف الإلهيّة كلّها أمانــات ، يكلّف الإنســـــــــــان بحفظها وحسن رعايتها ، وسيُســأل عنها يــوم القيامة ، قــال الله تعــــالَى : ﴿ إِنَّا عَرَضْـــــنَا الأَمَانَـــــةَ عَلَى السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَــالِ فَــأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (72) ﴾ الأحزاب .

وقال تعالى : ﴿ لِيَسْـأَلَ الصَّـادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً (8) ﴾ الأحزاب .

ولقد كان النداء الأوّل في رسـالة كـلّ رسول عليهم الصـلاة والسلام : ﴿ يَا قَـوْمِ اعْبُــدُوا اللــهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَــهٍ غَيْــرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ (65) ﴾ الأعـراف ، وجـاء الخطـاب العامّ للإنسـانيّة في القـرآن الكـريم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُـــــدُوا رَبَّكُمْ ، الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُــونَ (21) ﴾ البقرة .

فدلّ الجمع بين هذه النصوص على أنّ العبـادات أمانـات .. ووجه عـدّ العبـادات أمانـــات : أنّها تشْـــترك مع الأمانة المادّيّة المعروفة في وجوب المحافظة عليها كما

هي ، وعدم التغيـير أو التبـديل في شـيء منها ، وأدائها كاملة غــيرَ منقوصة ، مــتى طلبها صــــــاحبها ، أو أمر بها ، وهو الله تعالى جلّ جلاله ، وتباركت أسماؤهُ..

والصلوات الخمس من أعظم الأمانات وَأجلّها ، لما فيها من بُرهان العُبُوديّة الصادق ، إذ تحتاج المحافظةُ عَليها إلى مغالبة الأهواء والتعلّقات الدنيويّة الشاغلة عن ذكر الله ، ولما فيها من أنواع الطهَارات الحسّيّة وَالمعنويّة ، والتكرار في أوقات دقيقةٍ محدّدة ، آناء الليل وأطرَاف النهار .

ولو نظرنا إلى الصيام من هذه الوجهة لرأيْنَا أنّ التعبيرَ عنه بالأمانة يحمل دلالات هي على درجة كبيرة من الأهمّيّة :

ـ فهو أمانــةٌ ، تجب المحافظة عليها كما أمرَ صاحبها.

ـ وهو أمانـــةٌ يجب أداؤها كما أمـــرَ صاحبها كذلك ..

ـ وهو أمانـةٌ كـذلك من حيث هـو سـرّ بين العبد وربّه سبحانه ، لا يظهر لأحد من خلق الله ..

وأداء الزكاة من الأمانة ، لأنّ المالَ كلّه أمانَة بيد الغنيّ ، ومقدار الزكاة منه

ليس مالَه على وجه الحقيقة ، فيدُه يد أمانةٍ عليه ، والله تعالى يقول : وأنفقوا ممّا جعلَكم مستخَلفين فيه .. (7) الحديد .

ـ والحجّ كـــذلك أمانـــةٌ من أعظم الأمانات الشـرعيّة ، يـؤتمنُ فيه المـؤمنُ على محظـــورات الإحـــرامِ فلا ينتهكها ، وعلى الوَاجبات والمناسك فلا يُقصّــر فيها .. وفيه يجدّد توبته لله ، وعهـده مـع الله ، ألاّ ينحـرف عَنْ شـَرعِ الله ودينـه ، مهمـا تعرّض للمحن والابتِلاءَات ..

فمن تربّى على حفظ أمانة العبادات ورعايِتها ، وأداء حقّ الله فيها على أحسَن حال .. كان جديراً أن يحفظ سائر الأمانات ويرعاها .

ومن هنا كانت هذه العباداتُ أركاناً لدين الله يقوم عليها بُنْيانه ، وبها يُكتشف رسوخه في القلب وتمكّنه .. وكان حقّاً على الوالد والمربّي أن يتعهّد الطفل والناشئ بغرس محبّة هذه العبادات في قلبه ، والنشأة على المحافظة عليها وإتقانها ، وتعظيم شأنها وحرمتها ، واليقين أنّ من أتقنها بحقّ فهو أهل أن يستقيم في سائر شئون دينه ودنياه ،

ومن فرّط بها أو ضيّعها فأنى له أن يؤتمن على ما سواها من أمانات .؟!

* الحياة ساحة للعبادة .!

إنّ أهمّ ما يترتّبُ على الفهْم الصحيح الشامل للعبادة : أن تكونَ حياة الإنسان في كلّ جانب من جوانبها ، وكلّ نشاطٍ أو عمل عبادة ، يتقرّبُ بها الإنْسان إلى الله تعالى كما يتقرّب بأداء الصلاة ، والزكاةِ والصومِ والحجّ .. وهذا ما بيّنته الآية الكريمة ، وجعلته شعاراً للمسلم ، يعلنه ويعتزّ به : { **قُلْ : إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي ، وَمَحْيَاي وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِينَ** (162) ـ **لا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ، وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ** (163) } الأنعام .

كما بيّنه هدي النبيّ في مناسبات عديدة ، منها ما جاء في الحديث الصحيح عن ثَوْبَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ : (**أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ**) **قَالَ أَبُو قِلابَةَ : وَبَدَأَ بِالْعِيَالِ ، ثُمَّ قَالَ أَبُو قِلابَةَ : " وَأَيُّ رَجُلٍ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ رَجُلٍ يُنْفِقُ عَلَى عِيَالٍ صِغَارٍ ، يُعِفُّهُمْ ، أَوْ يَنْفَعُهُمُ اللهُ بِهِ ، وَيُغْنِيهِمْ** " [1] .

1(?) ـ رواه مسلم في كتاب الزكاة برقم /1660/ .

ـ وما جاء في الحديث عن أَبِي هُرَيْـرَةَ قَـالَ : قَـالَ رَسُـولُ اللـهِ : (**دِينَـارٌ أَنْفَقْتَـهُ فِي سَـبِيلِ اللـهِ ، وَدِينَـارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَـةٍ ، وَدِينَـارٌ تَصَـدَّقْتَ بِـهِ عَلَى مِسْـكِينٍ ، وَدِينَـارٌ أَنْفَقْتَـهُ عَلَى أَهْلِـكَ ، أَعْظَمُهَا أَجْـرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ**) [1] .

ـ وما جـاء في الحـديث ، عن أَبِي مَسْـعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ قَـالَ : (**إِذَا أَنْفَـقَ الرَّجُـلُ عَلَى أَهْلِـهِ نَفَقَـةً ، وَهُـوَ يَحْتَسِبُهَا** ، **فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ**) [2] .

والاحتسـاب هو طلب الأجر من الله تعالى .

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنَ عَمْرٍو يَقُولُ : قَـالَ رَسُـولُ اللـهِ : (**أَرْبَعُـونَ خَصْـلَةً ، أَعْلاهُنَّ مَنِيحَةُ العَنْـزِ ، مَا مِنْ عَامِـلٍ يَعْمَـلُ بِخَصْـلَةٍ مِنْهَا ، رَجَـاءَ ثَوَابِهَا ، وَتَصْدِيقَ مَوْعُودِهَا إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللهُ بِهَا الجَنَّةَ**) قَـالَ حَسَّـانُ : فَعَـدَدْنَا مَا دُونَ مَنِيحَـةِ العَنْـزِ ، مِنْ رَدِّ السَّـلامِ ، وَتَشْـمِيتِ الْعَـاطِسِ ، وَإِمَاطَـةِ الأَذَى عَنِ الطَّرِيـقِ ، وَنَحْـوِهِ ، فَمَا اسْـتَطَعْنَا أَنْ نَبْلُـغَ خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً " [3] .

1(?) ـ رواه مسلم في كتاب الزكاة برقم /1661/ .
2(?) ـ رواه البخاريّ في كتاب الإيمان برقم /53/ .
3(?) ـ رواه البخاريّ في كتاب الهبة برقم /2438/ .

وإنّي لألمحُ نُكتَة تربويّة في هـــــذا الحديث عميقة ، وهي لماذا لم يُعدّد النـبيّ هــذه الخصــال الأربعين .؟! ولمــاذا لم يستطع أحد رواة الحديث أن يعدّد هو ومن معه ، خمس عشــرة خصــلة منها .؟! إنّ السـرّ في ذلك ــ والله تعـالى أعلم ــ أن يبقى الباب مفتوحاً مع الزمن لما يجدّ في حيـاة النـاس من أعمـال خـير صـغيرة في نظر النــــاس ، ولكنّها في مــــيزان الله عظيمة ، ربّما تكــون للعبد ســببَ دخــول الجنّة ، وكيلا يحتقر مسلم شيئاً من أعمال البرّ ، وخصال الخـير ، فهي تجـبر كسـراً ، وتسدّ خللاً ، وتسعد أسرة ، وتنقذ نفساً ..

ويبلغ فضـلُ العمل الصـالح ، ولو كـان تافهـاً في نظر النـاس مبلغـاً عظيمـاً عند الله تعالى عندما يكون سـبباً لمغفـرة الله للعبد ودُخوله الجنّة ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُـولَ اللـهِ قَـالَ : (بَيْنَمَا رَجُـلٌ يَمْشِـي بِطَرِيـقٍ وَجَـدَ غُصْـنَ شَـوْكٍ عَلَى الطَّرِيـقِ فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ ..) [1] .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ : (**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ ، اشْـتَدَّ عَلَيْـهِ الْعَطَشُ ، فَوَجَـدَ بِئْراً ، فَنَـزَلَ فِيهَا ، فَشَـرِبَ ، ثُمَّ خَـرَجَ ، فَـإِذَا كَلْبٌ**

1(?) ـ رواه البخاريّ في كتاب الأذان برقم /615/ .

يَلْهَثُ ، يَأْكُــــــلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَـدْ بَلَـغَ هَـذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَـغَ بِي ، فَنَــزَلَ الْبِئْرَ ، فَمَلأَ خُفَّهُ ، ثُمَّ أَمْسَــكَهُ بِفِيهِ ، فَسَقَى الْكَلْبَ ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ ، فَغَفَرَ لَهُ ، قَالُوا : يَا رَسُـولَ اللـهِ ! وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْـراً ، فَقَـالَ : نَعَمْ ، فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَـةٍ أَجْـرٌ) [1] .

إنّ هـــذا الفهم للإســـلام ممّا يحتـــاج المــــــــربّي إلى غرسه وتعميقه في نفس الطفل والناشئ ، وتدريبه العمليّ عليه في كلّ مناسـبة ، كيلا يفهم الإسـلام فهمـاً كَنَسِيّاً ، يعزل الدينَ عن الحيـاة ، والعبـادة عن الســلوك ، ويحصر الــدينَ في زَاويـــةٍ ضـــيّقَة من الشـــعائر ، الـــتي هي أشـــبَهُ بـــالرموز والطقـــوس ، تُــؤَدّى بغـــير فهم لحكمها ، ولا وعيٍ بمقاصـــــــــدها وإدراك لمواقعها .. ثمّ تكــون متناقضــةً مع ســائر سلوك الإنسان ونشاطه ، ويكـون نشـاطه تائهاً عنها ، لا يلتقيها ولا تلتقيه ..

فعمل الخـــير في تصـــوّر المســـلم وممارســـته اليوميّة ليسَ قاصـــراً على

1(?) ـ رواه البخاريّ في كتاب الأدب برقم /5550/ .

شـــــعائر العبـــــادة ، يؤدّيها في أوقـــــات مخصوصة ، ثمّ تكون الحياة شريعةَ غاب ، وتنــاطُحَ ذئــاب .. وإنّما الأرض في تصــوّر المسلم محراب للعبـادة ، والحيـاة مَيـدان لها رحب ، والعمل النــافع الصــالح هــدف المســــــــلم وهمّته وطموحه ، ممّا يجعل المسلم يتعامل مع الحياة والأحياء بإيجابيّة فاعلة ، ونظْـرةٍ إيمانيّـةٍ سـامية ، إنّها زمن الجـدّ والاجتهـاد ، والتنـافس في الأعمـال الصالحة ، والاغتنـام لها ، والادّخـار للآخـرة .. بما ينفع عنــــدَ الله ، ويقـــــرّب إليه .. وليست الحياة ملعب لهو ، ودار وزر ..

وممّا يؤَكّد هـــــذه الحقيقة في نَفس المؤمن ، ويؤازرها ويعمّقها قوْلُ النــبيّ : (**وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْــــــــــجِداً وَطَهُــوراً ، فَأَيُّمَا رَجُـــلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ** ..) [1] .

إنّ هـــذا الشــمول في فهم العبـــادة والتعامل معها حـــــريّ أن يمنحَ الطفـــــلَ الجدّيّة والإيجابيّة ، منـــذُ نشــأته ، وتكــوّن

1(?) ـ رواه البخاريّ في كتاب التيمّم برقم /323/ ، ونصّه : عَن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللـهِ أَنَّ النَّبِيَّ قَـالَ : (أُعْطِيتُ خَمْسـاً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي ، نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ المَغَـانِمُ ، وَلَمْ تَحِـلَّ لأَحَـدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّـفَاعَةَ ، وَكَـانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً) .

عاداته وأنماط سـلوكه ، ولا يمكن بعد ذلك أن يكـــون مصـــدر خطر أو ضـــرر على مجتمعه أَوْ أمّته .. أو عضـــواً أشـــلّ في المجتمع ، عالة على الناس ..

* كيف يرعى المربّي مفهومَ العبادةِ .؟

العبادةُ في مفهومِها العامّ هي **كلّ ما يحبّه الله تعـــالى ويرضـــاه ، من الأقـــوال والأفعـــال والأفكـــار ، الظـاهرة والباطنة** ، وهــذا المفهــوم الـذي لا أعلم أحـداً ممّن يعتـدّ به يخالفه ، يعطي شـــموليّة في فهم الإســلام ، وفي التعامل مع مختلف شـئون الحيـاة ، ويضع ذلك في منظــور من التطلّع إلى الآخــرة ، والرغبة في التقرّب إلى اللـه تعـالى ، فهو ينتظم شــئون الحيـــاة كلّها ، ويجمع بين الـدنيا والآخـرة ، في تـآلف وانسـجام ، لا يعرف القطيعة ، أو التنافر والصراع ..

وقــوام العبـادة بهـذا المفهـوم أمران :

ـ **الأوّل** : نيّة التقرّبِ إلى الله تعالى ، وهو ما يعبّر عنه في بعض النصـوص أيضـاً بالاحتساب .

ـ **والثاني** : القيـام بالعمل وفق منهج الله تعالى ، وما شرعه الله فيه .

ولا نريــد أن نعــالج في هــذه الكلمــة ألوانـــاً من الفهم الخـــاطئ للعبـــادة ، والممارسات الكثيرة التي نتجت عنه ، وما

تولّد من نتـائج سـلبيّة ، كـان لها أكـبرُ الأثر فيما وقعت فيه الأمّة منْ مظاهر الانحراف والتخلّف ، والتخلّي عن ســـدّةِ القيـــادة للبشريّة .. فلذلك موطن آخر ، ولعلّ بيـان الحقيقة وتجليتها كفيل بتصـــحيح الخطأ ، وتقويم العوج ..

وإذا كانت العبـادة في مفهومهـا العـامّ كـــذلك ، فهي تقتضِـــي من المـــربّي أن يتعامل مع مَن يُربّيه من هــــذا المنطلق الشــموليّ من خلال : غــرس هــذا الفهم الصحيح ، وأنّه هدف وجـود الإنسـان وغاية خلقه أوّلاً ، وربطه بواقع الحيـــاة ثانيـــاً ، ووضع هذا التصوّر الصحيح موضع التنفيذ ، في كلّ موقف إيجابيّ أو سـلبيّ ثالثـاً ، ثمّ القياس والتقويم لســلوك الطفل والناشئ ومواقفه ، على ضوء هذا المفهـوم رابعـاً ، ومتابعة ذلك بما يتناسب مع طبيعة كـــــلّ مرحلة عمريّة ومتطلّباتها خامساً ..

هذا باختصار وإجمال منهج التربية على العبــادة وخطّته ، وما يقتضــيه ويســتلزمه من مراحل ، ليكـون هـذا المنهج في بـؤرة الواقع وحركة السلوك ..

والتفصيل المجمل لهـذا المنهج يحتـاج إلى شيء من البيان بعد الإجمَال :

1 ـ فالغرس لمفهوم العبـادة الصـحيح يقتضي أن يقدّم المربّي الأدلّة المناســبة : النصّـــيّة والعقليّة ، على أنّ العبـــادة هي هـدف وجـود الإنسـان وغاية خلقه ، كقـول اللــهُ تعـالى : { **وَمَا أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُـدُوا اللــهَ مُخْلِصِــينَ لَــهُ الــدِّينَ حُنَفَـاءَ ، وَيُقِيمُـوا الصَّـلاةَ ، وَيُؤْتُـوا الزَّكَـاةَ ، وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** (5) } البيّنة .

وقوله تعـــالى : { **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاّ لِيَعْبُــدُونِ** (56) **مَا أُرِيــدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ، وَمَا أُرِيـــــــدُ أَنْ يُطْعِمُونِ** (57) } الذاريات .

وقوله تعـالى : { **قُـلْ : إِنَّ صَـلاتِي وَنُسُكِي ، وَمَحْيَاي وَمَمَـاتِي للـهِ رَبِّ العَالَمِينَ** (162) **لا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ، وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ** (163) } الأنعام .

وقوله ســبحانه : { **وَلَقَـدْ بَعَثْنَا فِي كُـلِّ أُمَّةٍ رَسُـولاً ، أَنْ اُعْبُـدُوا اللـهَ ، وَاجْتَنِبُــــوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَـدَى اللـهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْـهِ الضَّـــلالَةُ ، فَسِــــيرُوا فِي الأَرْضِ ، فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَـذِّبِينَ** (36) } النحل .

والطاغوت هو كــلّ ما عُبد أو أطيع من دون الله برضَــى منه ، ورأس الطــواغيت إبليس ..

والفهم الصـحيح لهـذه الآيـات وأمثالها يعدّ من الأدلّة العقليّة على هذه الحقيقة .. وإذا كـان دين الله وشـرعه قد بيّن للنـاس ما يكلّفهم الله تعالى به في كلّ جانب من جـــوانب الحيـــاة ، منذ الميلاد وإلى ما بعد الوفـــــاة .. أفليس أداء تلك التكـــــاليف ، والالتزام بها عبادةً لله تعالى .؟ يثاب عليها الإنسان ، وتكون سبب مغفـرة الله تعـالى ورضـوانه له ، فـإن لم يكن أداء التكـاليف عبادةً .؟ فماذا يكون إذن .؟! **وإنّ غرس المفهـوم الصـحيح للعبـادة يقتضي ثلاثة أمور** :

أ ــ التكـرار والتأكيد ، ليطمئنّ المـربّي إلى تحقيق ما يريد .

ب ـ والتذكير بذلك بين الحين والآخر .

ج ـــ وتقـــديم النمـــاذج ، والتمثيـــل بالمواقف ، ويحسن أن تكون ممّا ذكر في النصوص النبويّة ، وهي كَثيرة متنوّعة ..

2 ـ وأمّا ربط مفهــوم العبــادة بواقع الحيـاة ، فهـذا من البداهة بمكـان ، إذ إنّ المفهوم الشـموليّ للعبـادة يجعل ميـدانَها

السلوك الإنسانيّ بمختلف جوانبه وآفاقه ، وهـذا ما أشـار إليه حـديث النـبيّ عن شعب الإيمان ، فيما رواه أبو هُرَيْـرَةَ عَن النـبيّ أنّه قَـالَ : (**الإِيمَـانُ بِضْـعٌ وَسَبْعُونَ ، أَوْ بِضْعٌ وَسِـتُّونَ شُـعْبَةً ، فَأَفْضَـلُهَا قَـوْلُ : لا إِلَـهَ إِلاّ اللـهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَـةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيـقِ ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**) [1] .

1(?) ـ رواه مسلم في كتاب الإيمـان بـرقم /51/ ، ويحسن في هـذا المقـام أن أنقل فائـدة لطيفة تتعلّق بعـدد هـذه الشعب عن الإمام ابن حبّـان رحمه الله ، فقد قـال في كتـاب : " الإحسـان " /1/387/ : " وقد تتبّعت معـنى الخبر مدّة ، وذلك أنّ مذهبنا أنّ النبيّ لم يتكلّمْ قطّ إلاّ بفائـدة ، ولا في سـننه شـيء لا يعلم معنـاه ، فجعلتُ أعدّ الطاعاتِ من الإيمان فـإذا هي تزيد على هذا العدد شيئاً كثـيراً ، فـرجعْت إلى السـنن فعـددت كلّ طاعـةٍ عـدّها رسـول الله من الإيمـان فـإذا هي تنقص من البضع والسـبعين ، فـرجعت إلى ما بين الـدفّتين من كلام ربنا ، وتلوته آيَة آية بالتـدبّر ، وعددت كلّ طاعة عـدّها الله جـلّ وعلا من الإيمـان ، فـإذا هي تنقص من البضع والسـبعين ، فضـممت الكتاب إلى السنن ، وأسقطتُ المُعادَ منها ، فإذا كـلّ شيْء عدّه الله جلّ وعلا من الإيمان في كتابه ، وكـلّ طاعة جعلها رسول الله من الإيمان في سـننه تسع وسبعون شعبة ، لا يزيـد عليها ، ولا ينقص منهَا شـيء ، فعلمْت أنّ مراد النبيّ كان في الخبر : أنّ الإيمـان بضْـع وسـبعون شـعبة في الكتَـاب والسـنَنِ " ، انظر كتـاب : " اللبـاب في أصـول الفقه " للشـيخ صـفوان

فقد أشار ذكـره لأعلى شـعب الإيمـان وَأَدْنَاهَا ، إلى أنّ ما بينهما من خصال الخير والـبرّ هوِ ممّا يُتَقَـرّبـ به إلى اللـهِ تعـالى ، وفي ذلكَ إشارةٌ أيضاً إلى شُمول مَفهُــوم العبــادة لشــتّى جــوانب الحيــاة . **وربطَ مفهوم العبادة بواقع الحياة يقتضي مِن المربّي** :

أ ــ أنْ يرسّـخ مفهـوم الخـير والشـرّ ، والمعـروف والمنكر ، وما يحبّه الله تعـالى ويرضاه ، وما يكرهه لعباده ، ولا يرضاه .

ب ــ وأنّ ما يحبّه الله ويرضـاه لا يخلو من : نفــــعٍ النفسِ ، أو نفــــعٍ النـــــاسِ ، والإصــــلاحٍ في الأرض ، والله غــــنيّ عَن العــالمين ، لا تنفعه طاعة الطــائعين ، ولا تضرّه معصية العاصين .

3 ـ ووضع هذا التصـوّر الصـحيح موضع التنفيذ في كــــلّ موقف ، يتطلّب تركــــيز المربّي على عدّة أمور :

الداووديّ ص/218/ـ . ومع أهمّيّة ما حقّقه هذا الإمـام عن عدد هذه الشعب ، فإنّها ينبغي أن تفهم على أنّها أنــواع ، وليست أفــراداً ، إذ إنّ النــوع يشــمل صــوراً كثـــيرة لا تـــدخل تحت حصر ، وما ذكرته أعلى من إشـارة الحـديث أهمّ ، لأنّه يـدلّنا على شـمول شـعب الإيمان لكلّ خصال الخير والبرّ ، وبالله تعالى التوفيق .

ـ **الأمر الأوّل** : أن يقصد الناشئ في سـلوكه من العمل ما يحبّه الله ويرضـاه ، ويبتعد عمّا سـوـاه ، وأن يحاسب نفسه على ذلك .

ـ **والأمر الثـاني** : أن يبتعد الناشئ عن التقليد الأعمى ، والتبعيّة بغـير وعي ، حتّى في مجال الخير والبرّ ، وإنّما يفعل ما يفعل بـدافع من رغبته وإرادته ، لا بـدافع منْ تمجيد الأشخاص ، وتقْديس الكبار .

ـ **والأمر الثـالث** : أن يجد الناشئ في الوالـدين ، وكـلّ من يتلقّى عنه قـدوةً حسـنةً له في سـلوكه ، فالقـدوة الحسـنة تختصر نصف الطريق للناشئ ، ونصـفه الآخر للمربّي .

4 ـ وممّا ينبغي على المـربّي أن يلاحظه ، وهو يتعهّد مفهـوم العبـادة ، ويؤصّـله في نفس الطفل والناشئ : القياس والتقويم لسـلوك الطفل والناشئ ومواقفه ، على ضـوء هـذا المفهـوم العـامّ للعبادة ، ومدى انسجامه مع هذا المفهـوم ، وهذا يتطلّب من المـربّي ملاحظة ما يلي ، وقياسه بدقّة :

أ ـ مدى إتقان الطفل والناشئ للعبادة ، أو احتياجه للتذكير والمتابعة .

ب ـــ مـــدى حبّ الطفل للعبـــادة ، وتقديمها على رغباته الخاصّة .

ج ـ مدى اندفاع الطفل أو الناشئ نحو العبادة ومظاهرها بمفهومها الخاصّ والعامّ بـــدافع ذاتيّ ، بعيـــداً عن تـــأثير المـــربّي ومتابعته .

د ـ قيـاس التطـوّر النـوعيّ ، والتطـوّر الكمّيّ في ســـــــلوك الناشئ ومواقفه ، إيجاباً بالرغبة في السـلوك المطلـوب ، أو سلباً بالنفرة من السلوك غَير المرغــوب ، والتفكـــير الجـــادّ في وســـائل المعالجة وأساليبها .

5 ـ وآخر ما ينبغي على المـــربّي أن يتحلّى به ، وهو يتعهّد مفهـــوم العبـــادة ، ويؤصّـــــــله في نفس الطفل والناشئ : **المتابعة الجـــادّة لما ســـبق ، بما يتناسب مع طبيعة كـــــــلّ مرحلة عمريّة ومتطلّباتها** :

وإنّ إهمال المتابعة يجْعلُ الطفلَ ينْشأ نشـــأة معوَجّة ، ويعـــرّض الناشئ لخطر الانتكـاس بعد الهـدى ، والتخلّف عن ركب الخير ، بعد التقدّم والسموّ .

والنشأة الطيّبة الجادّة لا تعفي المربّي من المتابعة في كلّ مرحلة ، فلكلّ مرحلة غذاؤها ودواؤها ، وما ينفعها ويؤثّر فيها ..

والمتابعة الجادّة تقتضي من المربّي :

أ ــ تغيير أساليبه وتطويرها ، والتفنّن فيها ، فما يناسب سنّاً قد لا يناسب سنّاً أخرى ، وما ينفع في مرحلة قد لا ينفع في مرحلة أخرى .

ب ـ ألاّ يملّ المربّي ، ولا يستيئس ، ولا يتراجع ، ولا ينكص ، ولا يسأم ، ولا يعجز .. وتلك علّة العلل في كثير من الآباء والمربّين ، يهدمون بالتراخي ، ما شيّدوه من المباني ، ويقيمون بلا عمل ، مع أحلام الأمانيّ والتواني ..

وبعد ؛ فما أحرى المُربّي ، الذي يريد أن يكون في أسرته وأولاده للمتّقينَ إماماً ، أن يأخذ هذه الحقائق بقوّة وعزم ، وأن يعلمَ أنّ دون بلوغ سنام العزّ والمجد ، الجهدُ الدائبُ ، والحزمُ الغالب ، ليكونَ منْ أهل الآية الكريمة : { **وكانوا لنا عابدين** } .

والله تعالى وليّ التوفيق والسداد ، والحمد لله أوّلاً وآخراً .

[illegible]

* التربية على العبادة ..

العبــادة لله وحــده هي العهد القــديم الذي أخذه الله على الإنسان ، وسجّله في فطــرهم البشــريّة ، وغرسه في طبــائعهم الأصـــيلة ، منذ عهد إليهم بأمانة التكليف ، فوضع في رءوســـهم عقـــولاً تعي ، وفي صدورهم قلوباً تخفق ، وفي الكون حولهم آيات تهـدي : { **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـابَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُـدُوا الشَّـيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَـدُوٌّ مُبِينٌ** (60)ـ **وَأَنْ اعْبُـدُونِي هَـذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** (61) } يس .

هــــذا العهد الوثيق بين الله تعــــالى وعباده ، هو الذي صوّره القرآن في روعــةٍ وبلاغــةٍ حين قــال ســبحانه : { **وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُــــــورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِـهِمْ : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى شَـهِدْنَا ، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَــةِ : إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** (172)ـ **أَوْ تَقُولُــوا : إِنَّمَا أَشْــرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْــلُ ، وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْـــدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَــــلَ المُبْطِلُونَ** (173) } الأعراف .

فلا عجب أن يكــون المقصــود الأعظم من بعثة النــبيّين ، وإرســال المرســلين ، وإنــزال الكتب المقدّسة هو تــذكير النــاس بهــذا العهد القــديم ، وإزالة ما تــراكم على عهد الفطــرة من غبــار الغفلة أو الوثنيّة أو التقليد ، ولا عجب أن يكـــون النـــداء الأوّل لكلّ رسول : { .. **يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللــهَ ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلَــهٍ غَيْــرُهُ ، إِنِّي أَخَــافُ عَلَيْكُمْ عَـــذَابَ يَـــوْمٍ عَظِيمٍ** (59)ـ } الأعراف ، بهــذا دعا قومه : نــوح ، وهــود ، وصــالح ، وإبــراهيم ، ولــوط ، وشــعيب ، وموسى وعيسى ، عليهم الصـلاة والسـلام ، وكـلّ رسـول بعث إلى قومه ، كـان هـذا محور دعوته ولبّ رسالته .

قال تعالى : { **وَلَقَـدْ بَعَثْنَا فِي كُـلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً : أَنْ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** .. (36) } النحل ، وقال تعالى : { **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُـولٍ إِلاَّ نُـــوحِي إِلَيْـــهِ : أَنَّهُ لا إِلَـــهَ إِلاّ أَنَا فَاعْبُـــدُونِ** (25) } الأنبيـــاء ، وذكر الله تعالى قصص عدد من الأنبياء ، ثمّ قال : { **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِــدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** (92) } الأنبياء ، وقال تعـالى :

{ **وَإِنَّ هَـــذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِــدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ** (52) } المؤمنون .

فالأديــان كلّها دعــوة إلى عبــادة الله تعالى وحـده ، والأنبيـاء جميعـاً أوّل العابدين لله ، وقد أثنى الله تعالى عليهم بقوله : { **وَكَــانُوا لَنَا عَابِــدِينَ** (73) } الأنبياء ، **فعبادة الله وحـده هي إذن مهمّة الإنســــــان الأولى في الوجــــــود ووظيفته ، وغاية خلقه وحياته** ، كما قـــال الله تعـــالى : { **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاّ لِيَعْبُــــدُونِ** (56) } الذاريات .

وعنــدَما أمرنا النــبيّ ﷺ أنْ نــأمرَ أولادنا بالصلاة وهم أبناء ســبع ، ونضــربهم وعليها إذا بلغوا عشر سنوات وقصّروا في أدائها ، فهذا يعني أنّ التربية على العبـادة من أهمّ ما يعتـــني به الشـــرع ويوليه رعايته ، كما يعني ذلك أنّ الإســلام جعل التــدريب على الصـــلاة على مرحلـــتين ، هما قبل ســـنّ البلوغ والتكليف :

ـ **المرحلة الأولى** : مرحلة الأمر والتعليم والـترغيب ، وذلك عند بلــوغ ســنّ الســـابعة ، ويكـــون التهيّؤ لها والتهيـــيئ : بالقـــدوة الحســـنة ، عنـــدما يـــرى الطفل

والديه يؤدّون الصـلاة وغيرها من العبـادات ، فيقلّدهم ، ويحاكي أفعالهم ، فـيرى منهم الاستحسان والتشجيع .

ـ **والمرحلة الثانية** : مرحلة التـأديب والـــــترهيب ، وذلك إذا وقع التقصــــــير والتهاون ، أو التفريط عند بلوغ العاشـرة ، وهذا ما يعدّ شاذّاً بعيد الوقــوع إذا أحكمت المرحلة الأولى ، ونـــالت ما تســتحقّ من الاهتمام والرعاية ..

فثلاث سنوات من التـدريب والـترغيب فرصة كافية للناشئ ، لتكـــون الصــــلاة نظامــــاً ، تتطبّع عليه حياته ، وتنشَــط له أعضــاؤه ، وتكــون جــزءاً من شخصــيّته ، وبرنامج حياته ، وبخاصّة أنّه يرى من حوله من والديه وإخوته الأكـــــبر منه وأخواته ، يؤدّون الصلاة كلّ يوم في أوقاتها بانتظــام ، فـإذا تهـاون بها بعد ذلك أو فــرّط ناسب أن يجد من المربّي الحزم والشـدّة ، ليعلم أنّ الأمر جــــدّ ، وأنّ وراءه مســـئوليّة في الدنيا قبلَ مسئوليّة الآخرة وجزائها ..

ومن ذاق لـــذّة العبـــادة للــهِ تعــالى استطاع أن يحبّب بنيه بالعبـادة ، ويـرغّبهم بهَا .. ولم يكن أمـــــــــره لهم بلغة الأمر والتكليف ، وإنّما بلسَـــان الحبّ والرغْبة ،

ومَا كان كـذلك كـان تـأثيره دائمـاً بالغـاً ..
وبعد أداء الفــــــرائض وإتقانها ينبغي على الوالد أن يـــرغّب الطفل أو الناشئ بـــأداء النوافل الــرواتب وغــير الــرواتب ، لينشأ الطفل على حبّ التقرّب إلى الله تعالى ..

ولا يختلف الصـــيام عن الصـــلاة إلاّ بفـارق واحد ، وهو مراعـاة القـدرة البدنيّة للناشئ ، فقد يبلغ الســابعة أو العاشــرة ، وجسمه ضعيف لا يحتمل الصــيام ، فيمهل حتّى يشتدّ عـوده ويَقـوى ، إذ لا يُكلّف الله نفســاً إلاّ وســعَها ، فكيف بمن لم يــدخُل بعد مرحلة البلوغ والتكليف .؟

وقد كان الصحابة يصـوّمون صـبيانهم وهم صغار ، حتّى كانوا يـأتون لهم بـاللعب من العهن ــ أي الصـوف ــ يلهّـونهم بها ، حتّى يأتي وقت الإفطار .

وليس المطلوب من الناشئ أن يصوم الشـــهر مـــرّة واحـــدة ، فمن الممكن أن يصــوم في أوّل ســنة يــومين أو ثلاثة أيّـام مثلاً ، ثمّ يصـــوم بعـــدها أســـبوعاً ، ثمّ أسبوعين .. حتّى يمكنَه بعد ذلك أن يصـوم الشهر كلّه قبل أن يدخل سنّ البلوغ ..

وينبغي أن يلاحظ الوالــــدان تخفيف التكاليف علَى الناشئ وقت الصيام رحمــةً

به وترغيبــاً ، وذلك من الرفق الــذي أمرنا به ، كما ينبغي عليهم أن يهتمّوا بالسحور ، وأن يكـون مقاربـاً لطلـوع الفجر ، ليكُـون أعون لهم على طاعة الله تعالى وأقوى .

وأمّا الزكــاة فجمهــور أهل العلم على أنّها تجب في مــال الصــبيّ ، ولو لم يبلغ ، يخرجها من ماله وَليّه أو وصيّه ، وحبّـذا أن يعرف الصبيّ ذلك عندما يكـبر ويكـون في سـنّ التميـيز ، ليستشـعر مسـئوليّة الأداء لهذا الركن من أركـان الإسـلام ، وليتـدرّبَ نفسـيّاً وعَمليّـاً على البـذل والإنفـاق في سبيل الله عزّ وجلّ .

وعنــدما يكــبر الطفل فيقــارب ســنّ البلـــــوغ ، فينبغي على وليّه أن يحثَّه على الصـــــــدقة من ماله بيْن الحين والآخر ، ليتعوّد على فعل الخير ، وينشأ على الجود والكرم ..

وأمّا الحجّ وهو الـــركن الخـــامس من أركان الإسلام ؛ فلا نجد في الهدي النبــويّ أمــراً للأطفــال به ، ويبــدو أنّ طبيعة الحجّ الخاصّة ، الـتي يشـترط فيها الاسـتطاعة ، والاستطاعة تشمل القدرة البدنيّة والماليّة ، والطفل في أغلب الأحـوال مظنّة ضـعف القـــدرة البدنيّة ، فمن رحمة الله تعـــالى

بعباده أن لم يوجّه الأمر لأطفالهم بها .. { **ومن تطوّع خيْراً فهوَ خيرٌ له** } .

ولا يخفى أنّ الفرق بيْنَ الصلاة وسـائر العبــادات لا يحتــاج إلى بيَــان ؛ من حيث الأهمّيّة ، ومن حيث الأثر النفســـــــــيّ والاجتمـاعيّ ، ومن حيث الـوقت والقـدرة على الأداء ، ممّا يجعل لها تميّـــــــزاً في التكليف بها منذ الســـابعة ، والضـــرب على التقصير بها عندَ العاشرة ..

ومن التربية على العبــــادة تربية الطفل على ذكر الله تعـــالى ، وتســـبيحه وتمجيده ، وتهليله وتعظيمه ، وتعويده على الأخذ بأذكار الصباح والمساء ، وما ورد في الســـــنّة النبويّة من أدعية المناســــبات وأذكارها ، وفي ذلك ترســــيخ لحقــــائق العقيـدة الـتي يعبّر عنها الـركن الأوّل من أركان الإسلام ..

وإذ كان مفهـوم العبـادة شـاملاً لما يحبّ الله ويرضى ، من الأقـوال والأعمـال الظـاهرة والباطنة ، الـتي تـؤدّى بنيّة التقـرّب إلى الله تعـالى ، فعلى المـــربّي أن يربط للطفل والناشئ كــــلّ عمل من أعمـال الخـير والـبرّ بعبـادة الله تعالى والتقـرّب إليه ، والرغبة في مثوبته ،

لينشأ على إخلاص العمل لله تعـــــــالى ، وابتغاء وجهه في جميع أعماله ..

ومن الخطأ الفـادح الـذي يرتكبُه بعض الآبَــاء والأمّهــات أنّهم يهملــون أولادهم منذ الصــغر ، فلا يـــدَرّبونهم على أداء الفرائض والطاعـات لله تعـالى ، فـإذا وصلوا سنّ البلوغ كانت العبـادة أثقل على أنفسهم من الجبـال ، فلم يسـتجيبوا للأمر أو النهي ، وأنفـــوا عن طاعة الله تعـــالى وتمرّدوا ، وما أصدق قول الشاعر :

وينفع الأدب الأولاد في صـــغرٍ   وليس ينفع عند الشيبة الأدبُ

إنّ الغصـــون إذا قوّمتها اعتـــدلت   ولن تلين إذا قوّمتها الخشبُ

أيّها الآباء والمربـون .! لقد قضَـت حكمة الله تعـالى أن يكـون في الأطفـال حـافز فطـريّ قـويّ : أن ينظـروا للكبـار نظـــرة الاقتـــداء في كـــلّ شـــيء ، فهم يتشبّهون بهم ويقتدون ، ويريدون أن يُــروا الكبـار من أنفسـهم القـوّة والقـدرة على أنّهم يفعلون ما يفعل الكبار ، ولا ينقصــون عنهم في شـيء .. وهـذا الحـافز الفطـريّ خـير عـون للوالـدين والمـربّين على توجيه الأطفـــال والناشـــئين نحو ما فيه خـــيرهم

وصــــلاح أمــــرهم من عبــــادة الله تعـــالى والحرص على التقرّب إليه ..

فلنتّخذ من أساليب الترغيب والتحـبيب بالعبادة ، ما يجعل عبادة الله تعالى فطرة راسـخةً مكينة في نفـوس أبنائنا ، وطاعته أحبّ إليهم من كلّ شيء ، وآثر عندهم من كــــلّ متعة .. ولنعلم أنّ منهج الحـــــقّ لا يسـتغني عن الأسـلوب الطيّب والوسـيلة المحبّبة .. بل هو أحـــقّ بها وأهلها .. **فهل نقدّر مسئوليّتنا حـقّ قـدرها** .؟ فينشأ أبناؤنا على حبّ العبــــــــادة والتعلّق بها ، ويكونوا قـرّة عينٍ لنا في الـدنيا والآخـرة ، فـإنّ الخـير عـادة والشـرّ عـادة ، ويشـيب المـــرء على ما شـــبّ عليه ، والتربية في الصـــغر كـــالنقش في الحجر ، ويقـــول الشاعر :

وينشَأ ناشئ الفتيان منّا
على ما كانَ عوّدهُ أبوهُ

اللهمّ أعنّا على ذكـــــرك وشـــــكرك وحسن عبادتك .

اللهمّ حبّب إلينا الإيمــــان ، وزيّنه في قلوبنا ، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من

الراشدين ، والحمد لله ربّ العالمين .

* ثمرات العبادة .!

الإيمـانُ عقيـدةٌ تعمُـرُ القلبَ ، وتغمـرُ الجـــوارحَ ، فتثمر الطاعـــةَ والفضـــائلَ والمكـــارم ، وحسن المعاملة ، وســـموّ الأخلاق .. وليس الإيمانُ كلمةً تجــري على اللسانِ ، أو يدّعيها الإنسَانُ بغـير برهـان .. بل هو عقيـدةٌ راسـخة ، وأخلاقٌ فَاضـلة ، وأعمالٌ صالحة ..

فالإيمانُ دافع للمؤمن إلى الإكثـار من الطاعـات حبّـاً لله ، وتقرّبـاً منه ، وطلبـاً لمرضاته .. وهذا ما يفسّر لنا اجتهاد النـبيّ في العبادة ، واجتهاد أصـحابه الكـرَام ، بصُـــورة دفعت بعضـــهم إلى المبالغة ، فكانوا يحتـاجون معها أنْ يـدعوهم النـبيّ إلى الاعتــدال ، والتخفيف عن أنفســهم ، وأن لا يكلّفوا أنفسهم ما لا يطيقون ، فـإنّ الله لا يملّ حتّى يملّوا ..

وإنّ أعظمَ ثمـرة من ثمـرَات العبَـادة أن يصل المــؤمن إلى مرْتبة الإحســان ، التي هي أعلى مـراتب الـدين ، وقد عرّفها النــبيّ بقوله : (**أن تَعْبُـدَ اللـهَ كأنّـكَ تَراهُ ، فإنْ لم تكُنْ تَراهُ فإنّهُ يَـراكَ**) [1] ، ويَنبغي أن نفهم هنا العبــادة بمعــنى

1(?) ـ جزء من حديث جبريل المشهور ، رواه مسلم بـرقم /

العمل أيّ عملٍ كـان ــ ما دام مشـروعاً ــ فكأنّ النبيّ يقـول : أن تعْمـلَ العمـلَ لله كأنّك تراه .. وهذا مَا يورّث المؤمن مراقبة الله تعـــالى في مهْنته ، في ســـوقه ، في تجارته ، في مدرســـته ، في جامعته ، في أخذه وعطائه ، في جوْدِه ومنعه ، في حبّه وبغضه ، في كلّ شَأنٍ منْ شئون حياتِه ..

وإذا كـان التعبـير عَن حقـائق الـدين وأعمَاله ومفاهيمه بكلمة جامعة هي : " التقوى " ، فإنّ التقـوى ليست في مفهـوم الإسلام وحقيقتها ـ كما يفهمها بعض الناس ــ ســلوكاً ســلبيّاً ، يتمثّل في موقف ردّة الفعل عن الأمـــور الســـيّئة المكروهة ، ومجاهــــــدة النفس على تركها .. وإنّما التقـــوى وقاية وقـــوّة ، وطاقة دافعة .. فـــالقوّة وقاية ، والوقاية قـــوّة ، والوقاية والقــوّة تبعثـان في الإنســانِ طاقة للجــدّ النشِــــــط ، والعمل الراشد .. فلا حقيقة للوقاية بغـير قـوّة ، ولا ثبـات للقـوّة بغـير وِقاية .. إنّهما شرطان لقيام سوق الحـقّ ، وارتفاع أعلامه في الخلق ..

والتقوى روح من نـور الله ، وإشـراقة الإرادة الخيّـرة في النفس المؤمنة ، الـتي حلّقت بطهرها في ســــــماء الإخلاص ،

8/ والترمــذيّ بــرقم /2613/ وأبو داود /4695/ والنســائيّ /8/97 .

وتخلّصت بنقــاء التوحيد من كــلّ شــائبة ، ورفــرفت في معــارج العبوديّة الصــادقة ، فلم تأسـرها ضـرورة ، ولم تحـدّ طموحها حاجة ..

وبقـدر ما تحمل التقـوى صـاحبها على اجتنــــــاب ما ينهى عنه ، فإنّها تدفعه إلى فعل مَا يـــؤمر به ، والتقـــرّب إلى ربّه بمَا يحبّه ..

والإحسَـــانُ روح تقـــوى الله تعــالى ، الـــتي هي كلمة جامعة لحقـــائق الـــدين ومراتبِهَا كلّها ، الظاهرة والباطنة ، القوليّة والعملَيّة والقلبيّة ، وهو يقـود الإنسـان إلى الالتزامِ الصادقِ بدينِ الله تعالى ومنهجه ، وهوَ منَ أهمّ ثمَرات العبادة لله تعالى .

ـ ومن ثمــرات العبــادة لله تَعــالى : إتْقـــان العمـــلِ وتجويـــده ، وقد جـــاء في الحــــديث : (**إنّ الله يحبّ من العامل إذا عمل عملاً أن يتقنه**) [1] ، لأنّ المؤمنَ عنْدما يقوم بالعمل ابتغَـاء مرضـاة الله تعــالى لابــدّ أن يلاحظ أنّ الله تعــالى طيّب ، لا يقبل إلاّ طيّبــــاً ، ومنْ معــــنى الطيب أن يكون العمل متقناً جيّداً ..

ومن ثمــرات العبــادة : صــلاح النفس واستقامتها وهداها ، وتلك ثمرة من أعظم

1(?) ـ رواه أبو يعلى والعســكريّ عن عائشة ترفعه ، ورواه البيهقيّ والطبرانيّ ، انظر كشف الخفاء 1/286/ .

ثمرات التكليف الإلهيّ ، يقول الله تعالى : { **يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** (26) **وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً** (27) **يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً** (28) } النساء .

ويقول تعالى : { **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى** (14) **وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى** (15) } الأعلى .

ويقول سبحانه : { **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا** (7) **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** (8) **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** (9) **وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** (10) } الشمس .

وبعد ؛ فإنّ ثمرات العبادة أكثر من أن تحصى ، وهذا ما يفسّر لنا طرفاً من حكمة الله تعالى إذ جعل العبادات الخاصّة : من صلاة وزكاة ، وصوم وحجّ أركاناً للإسلام ، لما لهَا من تأثير واسع متشعّب في شتّى مناحي الحياة ..

ولكنّنا عنـدَما ننظر نظـرة جامعة إلى ثمـــرات العبـــادة ، نراها تجتمع في ثلاثة جوانب :

ـ **الجـانب الأوّل** : ثمـرات للعبـادة تتعلّق بصـلة العبد بالله تعـالى ؛ كحبّ الله تعـالى وخشـيته ، وخوفه ورجائه ، والتوكّل عليه ، والإنابة إليه ، وذكره تعالى وشـكره ، والإخلاص لوجهه الكريم ، وكمال توحيده وتعْظيمه ..

ـ **والجانب الثاني** : ثمـرات للعبـادة تتعلّق بشخصيّة الإنسـان ، وتكوينه وبنائه ؛ كقـوّة الإرادة ، وسـموّ الهِمّـةِ ، وتزكية النفس ، والتحقّق بالصـــدق والأمانة ، والتمسّـك بمكـارم الأخلاق ، والبعد عن مساوئها .

ـ **والجانب الثالث** : ثمـرات للعبـادة تتعلّق بصلة الإنسـان بـالآخرين ، وعلاقتهم به ، كحفظ الذمم ، وأداء الحقـوق ، وكـفّ الأذى ، والتســامح ، وحسن التعامل مع الناس ، وحسن الظنّ وسلامة الصدر .

ولا شيء من ثمرات العبادة يخرج عَنْ هذه الجوانب الثلاثة ، وهي متّصلة متداخلة .

إنّ على الوالد والمـــربّي أن يربط للطفل والناشئ بين العبـــادة ، وما يتّصل بهَا منْ ثمرات وبركات وآثار ، فهذا خير ما

يبعد العبــادة عن أن تكــون جســداً لا روح فيه ، وعـادة لا ثمـرة لها وصـورة لا حقيقة لها ، ولا فائدة منها ..

* أثمنُ ثمرات العبادة

ثمرات العبادة لا يمكن أن يحيط بها وصف ، أو يقدر على التعبير عنها قلم ، ومهما كتب الكتّـاب ، واجتهد المفكّرون فسيبقى وراء ذلك زَاد لمستزيد .!

وإن أثمن ثمرات العبادة وأجلّها ما يتّصل بحقيقة العبادة ومفهومها ، أو يتّصل بحقائق الإيمان وثمراته ، فيزيدها قوّة ورسوخاً .. ومن هنا فإنّ أثمن ثمرات العبادة ما يتحقّق بها إن أدّيت على وجهها وكمالها من حبّ الله تعالى ، والأنس به ، والشعورِ بالحاجة والافتقار إليه ..

وإنَّ القلبَ الإنسانيَّ دائمُ الشعورِ بالحاجةِ إلى اللهِ تعالى ، وهوَ شعورٌ أصيلٌ صادقٌ ، لا يملأُ فراغَه شيءٌ في الوجودِ ، إلاّ حسنُ الصلةِ بربِّ الوجودِ ، وهذا ما تقومُ بهِ العبادةُ ، إذا أُديَت على وجهِها .

وكلّما أخلَصَ المرءُ العبوديةَ للهِ وجدَ نفسَه ، واهتدى إلى سرِّ وجودِه ، ووجدَ معَ ذلكَ سعادةً روحيةً لا تدانيها سعادةٌ ، تتمثلُ فيما سماهُ الرسولُ : " حلاوةَ الإيمانِ " .. وإنَّه لا شيءَ أحبَّ إلى القلوبِ منْ خالقِها وفاطرِها ، فهوَ إلهُها ومعبودُها ، ووليُّها ومولاها ، وربُّها ومدبرُها ، ورازقُها ، ومميتُها ومحييها .

فمحبةُ اللهِ تعالى نعيمُ النفوسِ ، وحياةُ الأرواحِ ، وقوتُ القلوبِ ، وعمارةُ الباطنِ .. وليسَ عندَ القلوبِ السليمةِ ، والأرواحِ الطيبةِ ، والعقولِ الزكيةِ أحلى ولا ألذُّ ، ولا أطيبَ ولا أسرَّ ، ولا أنعمَ منْ محبةِ اللهِ تعالى ، والأنسِ بهِ والشوقِ إلى لقائِه ، والحلاوةُ التي يجدُها المؤمنُ في قلبِه بذلكَ فوقَ كلِّ حلاوةٍ ، والنعيمُ الذي يحصلُ له بذلكَ أتمُّ منْ كلِّ نعيمٍ ، واللذةُ التي تنالُه أعلى منْ كلِّ لذةٍ ، كما أخبرَ بعضُ السلفِ عنْ حالِه بقولِه : " إنَّه ليمرُّ بالقلبِ أوقاتٌ أقولُ فيها : " إنْ كانَ أهلُ الجنةِ في مثلِ هذا ، إنَّهم لفي عيشٍ طيبٍ " .

وقالَ آخرُ : " أهلُ الغفلةِ مساكينٌ ! خرجوا منْ الدنيا ، وما ذاقوا أطيبَ ما فيها . فقيلَ لهُ : وما هوَ ؟ قالَ : محبةُ اللهِ تعالى ، والأنسُ بهِ " .

وقالَ آخرٌ : " أطيبُ ما في الدنيا ، معرفةُ اللهِ تعالى ومحبتُه ، وأطيبُ ما في الآخرةِ ، رؤيتُه وسماعُ كلامِه بلا واسطةٍ " .

وقالَ آخرٌ : " لو علمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيهِ منْ النعيمِ ، لجالدونا عليهِ بالسيوفِ ! " .

ووجدانُ هذهِ الأمورِ وذوقُها ، إنَّما هوَ بحسبِ قوةِ المحبةِ وضعفِها ، وبحسبِ

إدراكِ جمالِ المحبوبِ والقربِ منْه ، وكلَّما كانَت المحبةُ أكملَ ، وإدراكُ المحبوبِ أتمَّ ، والقربُ منْه أوفرَ ، كانَت الحلاوةُ واللذةُ ، والسرورُ والنعيمُ أقوى وأعظمَ .. وكلّما ازدادَ العبدُ للهِ تعالى حُبّاً ازدادَ له عبوديةً وذلاً ، وخضوعاً لهُ ورقّاً ، وحريةً عنْ رقِّ غيرِه .

هذا والاشتغالُ بالعبادةِ انتقالٌ منْ عالمِ الغرورِ ، إلى عالمِ السرورِ ، ومنْ الاشتغالِ بالخلقِ إلى حضرةِ الحقِّ ، وذلكَ يوجبُ كمالَ اللذَةِ والبهجةِ " [1] .

فعلى الوالد المربّي أن يجتهد في غَرس هذه الثمرات الطيّبات في نفس الطفل والناشئ ، ولا يكن أمره بالعبادة نوعاً من التكليف بمظاهر ورسوم ، بَعيدة عَن الحقائق والمعاني ..

(1) ـ من خطب الشيخ أحمد رحمه الله المكتوبة .

يكــاد يكــون الخطأ جــزءاً من تركيبة الإنسان وتكوينه ، وليس ما يقلق أن يكون كـــذلك ، ولكنّ المقلق حقّــاً أن يتحـــوّلَ الخطأ مع مــرور الــزمن إلى : " صــواب مشـــهور " ، ويكـــون في نظر كثـــير من النـاس خـيراً من " الصـواب المهجـور " ، وأن يجد من المتحمّسين له من يدافع عنه ، فيبني له فلسفة ، ويضع له قواعد ، ويذمّ " الصواب المهجور " ، ويـزري به ، ويعيب من يتمسّك به ، ويدافع عنه ..

ويَــزدادُ الخطأ خطــراً عنــدما يتّصل الأمر بدين الله ، فيخشى أن يكــون الخطأ ، الذي يصرّ عليه المصرّون ــ لأنّهم ليســوا أهلاً للاجتهاد ـ نوعاً من التلاعب والتحريف لــدين الله ، الــذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا منْ خلفه .. وهو غــــــــير الخطأ الاجتهـاديّ المـأذون به ، الـذي يـؤجر عليه صاحبه ، لأنّه في دائـرة الفـروع والظنّيّـات ..

ـ فهناك إذن نوعان من الخطأ :

ـ خطأ مــــــأذون به ، وهو الخطأ الاجتهاديّ ، نمية وتحقيق الصــادر من أهله وفي محلّه ، ولا سبيل لنا إلى الإنكـار على

صاحبه ، لأنّنا لا نعلم الصــواب على ســبيل الجزم واليقين .

ـ وخطأ غــير مــأذون به ، وهو الخطأ المجـزوم به ، وهو الخطأ النـاتج عن سـوءِ فهم ، أو قصـور فهم ، ولا يتمـارى أحد من أهل العلم الموثوق بعلمهم وفقههم بخطئه ، ومجانبته للحقّ .

ـ وهـذا القسم من الخطأ في العبـادة غير المأذون به يمكننا أن نميّز منه الأنــواع التالية :

1 ـ القصور في فهم العبادة .

2 ـ الاقتصــــار على بعض جــــوانب العبادة ، والتضخيم لها وإهمال ما سواها .

3 ـ الإضـافة إلى العبـادة ما ليس منها .

والنــوع الأوّل والثـاني لا يقلاّن أهمّيّــةً عن النوع الثـالث ، الـذي يهتمّ به كثـير من الدعاة والمصلحين ، ويهملون ما عداه .

1 ـ فالقصــور في فهم العبــادة تــدخل تحته صور عديدة ، منها :

أ ـ القصور في معرفة أحكــام العبــادة ومراتبها . فما أكـثر الـذين يـؤدّون العبـادة بجهل ، فلا يميّــزون بين أركانها وواجباتها ، وسننها وآدابها ، ويقضون عشرات السـنين من حياتهم وهم على ذلك .!

ب ـــــــ القصـــــــور في فهم الحكم التشريعيّة من العبادة بوجه عــامّ ، والحكم التشريعيّة لكلّ عبادة بوجهٍ خاصّ .

ج ـــ القصــور في فهم آثــار العبــادة وثمراتها ، على المستوى الفـرديّ ، وعلى المستوى الاجتماعيّ .

2 ـ والاقتصـــار على بعض جـــوانب العبادة ، والتضخيم لها وإهمال ما سـواها ، تدخل تحته كذلك صور عديدة ، أهمّها :

أ ـــ الاقتصـار على العبـادات الفرديّة ، وإهمال العبـادات الاجتماعيّة ، الـتي يتجلّى فيها الاتّصــال بــالمجتمع ، والتعــاون معه ، والانـــــدماج فيه ، أوْ عكس ذلك عند بعض الناس .

ب ـــ الاقتصـار على العبـادة بمفهومِهَا الخاصّ ، وإهمال العبادة بمفهومها العــامّ ، وقـــدْ تكـــون أحبّ إلى الله تعــالى ، وفي ميزان العبد أرجح .

ج ـ الأخذ بنوافل العبـادات ، وتـرك ما يجب منها ويتأكّد ، فكم من النـــــاس من يشــتغل بالنافلة عن الــواجب ، وبــالواجب الموسّع عن واجب الوقت المضيّق .

3 ـ وأمّا الإضـافة إلى العبـادة ما ليس منها فذلك من الابتداع في دين الله تعــالى

، الـذي ينبغي على المـؤمن أن يحـذر منه أشدّ الحذر ، لأنّه ينحرِف عن سـبيل الحـقّ والهدى ، ولا يـدري ما يقـوده إليه انحرافه من أودية الضـلال ، ويتعب نفسه من غـير ثمـرة أو فائـدة ، ويضـيّع العبـادة المطلوبة منه ، ويكون ممّن زُيّن له سوء عمله فرآه حسناً ..

ويتجلّى خطر الابتداع في الدين وسوء أثره مع مـرور الـزمن ، إذ تنطمس معـالم الحقّ من حياة النـاس ، ويصـبح المعـروف منكراً مستهجناً ، والمنكر معروفـاً مألوفـاً ، وهو ما أشرت إليه في بداية هذا المقـال ، وينذر بأسوأ العواقب والآثار ..

فمــاذا على الوالد والمــربّي أن يفعل كيلا ينشأ الطفل على الخطأ في فهم العبــادة وممارســتها .؟ هاهنا جملة أمــور ينبغي أن ينتبه إليها المربّي :

1 ـ التـدرّج في فهم العبـادة ، وحكمِها ومقاصـــــــــدها ، بما يتناسب مع المرحلة العمريّة ، الـتي يمـرّ بها الطفل والناشئ ، وألاّ يقتصرَ الأمر على التلقينِ بدونِ فهم .

2 ـ أن يؤكّد على الطفل المفهـــوم الشموليّ للعبادة ، وتعقد له بينها المقارنة والمفاضلة المناسبة لسنّه .

3 ـ أن ينبّه الطفل في مرحلة الطفولة المتأخّرة على الأخطـاء الـتي يقع فيها النـاس في فهم العبـادة وممارسـتها ، تحصـيناً له عن ذلك ، مع التمثيل المناسب .

4 ـ أنّ العبادة كلّما تجـرّدت عن هـوى النفس ، وتحقّق صـاحبها بصـدق التأسّــي والاتّباع كانت أقرب إلى قبـول الله تعـالى ورضاه .

وقبل ذلك كلّه ، وخــير منه أن يكــون الوالد والمـربّي قـدوةً حسـنة في العبـادة للطفل والناشئ ، فهماً وسمتاً وسـلوكاً .. فلا يسع الطفل إلاّ أن يقتـــدي ويتـــأثّر .. والله الهادي إلى سواء السبيل .

* أطفالنا ونعم الله .!

لقـــد تكرّر في القـــرآن الكـــريم في مناســـبات عديدة الأمـــرُ الإلهيّ بذكر نِعْمَة اللهِ تَعـالى ، وهي لا يسـتطيعُ الإِنْسـان أن يُحْصيَها عدّاً ، والمقصُـود بهَا جنسُ نعم الله ، التي تَشملُ حياة الإنسان وكيانه كلّه ..

والإنسـان منْ طبعه النســيان ، وإلفه للنعم ، وتقلّبه فيها يجعله لا يحسّ بقـــدرها وأهمّيّتها ، فكان لابدَّ له من التذكيرِ بها بين الحين والآخر .

وإنَّ من فطـرة الله في الإنسـان حُبّ المحسن وَشُكره ، والاعتراف له بالفضل ، والثناء عليه في السرّ والجهر .

فما أحوجَنا إلى التـــــــذكيرِ بنعم الله تعالى ، لأنّنا عندما ألفناها لم نعدْ نستشعر أهمّيّتَها وَعَظَمَتها .. ومَن مِنَ النـاس مَن لا يتقلّب في نعم الله الــتي لا تعدّ ولا تحصى ، في جميع لحظـــــات حياته ، مهمَا عَظُمَ ابتلاؤه .؟!

ومَن منّا مَن يـــذكرُ هـــذه النعم ، ولا ينسَاها ، ويعرفُ قدْرَها ، ولا يغفلُ عنهَا .؟! ويــؤدّي حــقّ الله فيها كما يليق بجلال الله تعــالى وعظمته .؟ إنّ الأعمــارَ لتفنَى دونَ أدَاء حــقّ الشـكْر على نِعْمَةٍ من نِعمِ اللــهِ عَلى العبد ..

ومن ثمّ فقد تكرّر في القرآن الكــريم التـــذكير بنعم الله تعـــالى على عبـــاده ، والحثّ على شكرها ، والتحــذير من كفرها

، يقــول الله تعــالى : { **وَآتَاكُمْ مِنْ كُـلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا ، إِنَّ الْإِنْسَـانَ لَظَلُـومٌ كَفَّارٌ (34)** } إبراهيم .

ويقول سبحانه : { **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللـهِ لا تُحْصُـوهَا ، إِنَّ اللــهَ لَغَفُـورٌ رَحِيمٌ** (18) } النحل . ويقول تعالى : { **وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَـةٍ فَمِنَ اللــهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْـهِ تَجْـأَرُونَ** (53) } النحل . ويحذّر الله عباده منْ كفــر النعَم ، وأنّ عقوبته الشديدة تحيق بأولئك الذين لا يؤدّون حقّ الله فيها ، فيقــول ســبحانه : { .. **وَمَنْ يُبَـدِّلْ نِعْمَـةَ اللهِ مِنْ بَعْـدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَـابِ** (211) } البقرة .

ويبيّنُ ســـنّتَه الثابتـــة في خلقه أنّه ســبحانه لا يزيل النعمـــة عن قـــوم حتّى يســلكوا بها ســبيل الفســاد والانحــراف ، فيقول سبحانه : { **ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَـةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَـوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ ســمِيعٌ عَلِيمٌ** (53) } الأنفال .

وممّا يتنافى مـع شكر نعم الله تعـالى الاستهتار بنِعمِ اللـهِ تعَـالَى وإهـدارهَا ، كما يفعلُ كثير منَ الناس في مناسباتِ الأفراح ، إِذْ يلقـــونَ مَا يزيد مِنْ طعـــامِهِمْ في صــناديق القمامَة ، وَحــولهُمْ منْ يتضــوّر جوعاً ، ويتلوّى فقراً .

ومن أهَمّ الحقـــــائق الــــــتي يَنبغي أن يغرسها المربّي في نَفس الطفل :

ـ استشـعار عظمـة الله تعـالى فيما أنعم على عبـاده وتَفضّـل ، منْ نعم لا تعـدٍّ ولا تحصى ، وأنّ العبــاد عــاجزون عَجــزاً مُطْلقاً عن أداء حَقّ شكره سبحانه .

ـ أنّ حقيقة الشـكر إنّما هي اسـتعمال النعمــة فيمــا يرضــي المنعم ، وهو عمل يشترك فيه اللسان والقلب والجوارح .

ـ ينبَغي أن يعوّد الطفــل الإكثــار من ذكــر اللــه تعـالى وشـكره ، وبخاصّـة عنـد تجـدُّد نعم الله عليه ، وسـؤال اللـه العـون على حسن عبادته .

ـ أنّ شــكر النعم كما أمر اللــه هــو الســبيل إلى دوامها ، ونيل المزيد منهــا ، كمَا قَــالَ تعَــالى : {**وإِذْ تأذّنَ رَبُّكُمْ لئن شكرتُمْ لأزيـدَنّكُمْ ، وَلَئن كفـرتُم إنّ عَذَابِي لَشديد** (7)} إبراهيم .

* مَاذا قبْل : " مروا أولادَكم بالصلاة .؟! "

يظنّ بَعض النـــاس أنّ التربِيــــةَ على العبـادة تبـدأ حين نـأمُرُ الطفـلَ بالصـلاة ، وهو ظنّ واهمٌ ، سـببه الوقــوف عند فهم سطحيّ لحديثِ : " مـروا أولادَكم بالصـلاة .. " [1] ، والحـــــــقّ أنّ مرْحلة الطفولة المبَكّـرةَ هي مرحلة التمهيـدِ لهـذا الأمــرِ والتكليف ، حتّى إذا آنَ الأوانُ لهــــذا الأمر كـــانَ ثمــرة طبيعيّة لتلك المرحلة المهمّة من حياة الطفل ..

* فمَاذا قبْل : مروا أولادَكم بالصلاة .؟ وما المرحلة التمهيديّة لهذا الأمرِ .؟!

إنّ هنـاك حقـائقَ مهمّة ، على الآبــاء والمـربّين أنْ يغرسـوها في نَفس الطفل ، ويتعهّدوها ، ليكون من آثارها إقبالُ الطفل على العبادة ، عندما يـؤمرُ بها ، وأهمّ هـذه الحقَائق :

1 ـ تحـبيب الطفل بالله تعـالى بتعـداد نعمه ســبحانه : { **وَمَا بِكُم مِن نِعمَــةٍ فَمِن اللــهِ** ... (53) } النحل ، والتــذكيرِ بهَا بينَ الحين والآخر ، وإثــــــارة العطف والشــــفقة على من حــــرم منها ، فكيف نحفظ نعم الله .؟

2 ـ التربية على شكْر المنعم ، والثنـاء على منْ قـــدّم المعـــروف ، والله تعـــالى

1(?) ـ رواه أبو داود بــرقم /495/ بإســناد حسن ، وأخرجه أحمد 2/180 و187/ .

أعظم منعم على العَبد متفضّــــــل ، فهل نستَطيعُ أن نؤدّيّ شُكرَ الله على نعمه .؟!

3 ـ تقــديم القــدوة العمليّة للطفْل ، وذلك بأن يــرى والديه ، ومن هو أكــبر منه ســنّاً ، مهتمّين بالصــلاة ، حريصــين على أدائها في وقتها ..

وإنّ الأســرة المســلمة تقــدّم صــورة مضيئة عن الاهتمـام بالصـلاة ، فمنذ الفجر تَــرى الأســرة تنهض إلى الصــلاة كبــاراً وصِـغَاراً ، فيما يشــبه اســتعداداً لاحتفــالٍ بهيج ، فـــالبنون يخرجــــون مع أبيهم إلى المسجد لصلاة الجماعة ، والبنــاتُ يصــلّينَ مع أمّهنّ .. والأطفال الصغار يشْهدونَ هذا الموقف المتكرّر كلّ يوم ، ويشــاركون فيه بطريقتهم الخاصّة ..

وعلى قـــدر عظم الأمر وأهمّيّته يعظم التهييئ النفسيّ له والاستعداد ، فما دامت الصــلاة أهمّ أعمــال المسْــلم فينبغي أن تحظى بـأعلى درجـات التهيـيئ النفسـيّ ، الــذي يجعلها تُـؤدّى على أحْسن صــورَة ، وأتقَن هيئة .. فلا يســتوي من عـــاش في بيت لا يعـرف الصـلاة ، ولا يهتمّ بها ، كمن نشأ في جـــوّ مشـــحون بحبّ الصـــلاة ، والاهتمام بهَا ، والحرص على أدائها ، فلابدّ أن يتــأثّرَ بهــذا الجــوّ ، ويــرث عنه تعظيم الصـلاة ، والاهتمـام بها ، وهـذا ممّا يشـير إليه قــول الله تعــالى : { **ربّ اجعلــني**

مُقيمَ الصــلاة ، ومن ذرّيّــتي ، ربّنا وتقبّل دعاء (40) } إبراهيم .

هذا ومن أهمّ مظاهر التهييئ النفسـيّ للصلاة :

1 ـ رؤيَة الكبـار يصـلّون ، كالوالـدين والإخوة والأخوات ، وهذا ما يجعل الأطفال منذ السـنوات المبكّـرة يحـاكون الكبـار ، ويقلّـدونهم في حركـات الصـلاة ، وعنـدما يكـبر الأطفـال يـزدادون تعلّقـاً بالصـلاة ، وحبّاً لها .

2 ـ التحــبيب بالصــلاة وما فيها من فوائد ، بما يناسب سنّ الطفل واسـتعداده : فينْبغي أن يحدّثَ الوالدان الطفـلَ بـذلك بين الحين والآخر ، ليزداد شـوقاً كلّما كـبر إلى أداء الصلاة ، ليكون مثل الكبار ..

3 ـ أن يـبيّن الوالـدان للطفل ثمـرات الصــلاة وآثارها ، ومنْ أهمّها : مراقبة الله تعـالى وخشـيته ، وحسن معاملة النـاس ، والبعد عن الفحشـــــاء والمنكر : { **إنّ الصلاةَ تَنهى عَنِ الفحشاءِ والمُنكرِ ، ولذكرُ الله أكبر** .. (45) } العنكبوت .

4 ـ أن يحـدّث الوالـدان الطفـلَ عن صلاة النـبيّ : كيْف كـانت .؟! بما يناسب ســنّ الطفل ووعيه ، لينشأ متطلّعــاً إلى أداء الصلاة كما كان النبيّ يؤدّيها ..

فقد كـان النـبيّ لا يشـغله شـأن عن الصــلاة ، وكــان إذا حزبه أمر فــزع إلى الصــلاة ، وكـان يقـول لبلال : أرحنا بهَا يا

بلال ! أرحنا بهَا يا بلال ! وقـــام من الليل حتّى تـورّمت قـدماه ، وعنْـدما قيل له في ذلك ، قال : أفلا أكون عبداً شكوراً .؟!

5 ـ بيــان مكانة المصـلّين عنْد الله ؛ فالمصـــــلّون تســــتغفر لهم الملائكة ، ويذكرهم الله في الملأ الأعلى ، ويستجيب الله لهم دعاءهم ، ويرفعهم عنـده درجـات عليا في الجنّة ، وهكذا فإنّ الصـلاة مفتـاح الخيرات في حيَاة المؤمن ..

6 ـ ومن التهييئ النفسيّ للصـلاة : أن يُحَفّظ الطفـلُ بعضَ النصـوص الشـرعيَّة ، التي تبيّن فضل الصلاة وأهمّيّتها ، ويبيّن له معناها بما يناسب سنّه ، ومن ذلـك قـول الله تعالى : { **حَافِظُوا عَلَى الصَّـلَوَاتِ ، وَالصَّـلاةِ الْوُسْـطَى ، وَقُومُـوا للـهِ قَانِتِينَ** (238) } البقرة .

وقوله ســـبحانه : { **وَاسْــــتَعِينُوا بِالصَّـبْرِ وَالصَّـلاةِ ، وَإِنَّهَا لَكَبِـيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِـعِينَ** (45) ـ **الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ ، وَأَنَّهُمْ إِلَيْـــــهِ رَاجِعُونَ** (46) } البقرة.

وقوله تعالى : { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّـبْرِ وَالصَّـلاةِ ، إِنَّ اللـهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** (153) } البقرة .

وقول تعالى : { **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ** (1)ـ **الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ** (2) }المُؤْمِنُونَ.

7 ـ ومن التهيـيئ النفســيّ للصـلاة : تعليم أهمّ أحكام الطهارة والصلاة بصــورة

متدرّجَة مناســـبة ، حتّى إذا وصل الطفل سنّ السابعة كان مدركاً بصورة جيّدة لأهمّ أحكام الصـلاة ، مؤدّيـاً للطهـارة المطلوبة كما ينبغي .. ولقد رأيت عدداً من الناشــئة في أسرٍ متديّنة ، بلغوا سنّ التميــيز ، وهم لا يعلمــون شــيئاً من أحكــام الطهــارة والصلاة .!

8 ـ ومن التهيــيئ النفســيّ للصـلاة : الاحتفـال بصـلاة الطفل ، ودعـوة الأقـارب والأصدقاء لذلك ، وصلاة الطفل أمــامهم ، وتَقديم الهدايا له بهذه المناسـبة ، وكـذلك الاحتفال بصلاة الفتاة وحجابها .. [1] .

ومثل هـذا الاحتفـال له أثر عميق في نفس الطفل ، وبخاصّـــة إذا سُــجّل له وحفظ ، فكان التسجيل ذكرى لا تنسى ..

ومن بركــات هــذا الاحتفــال : دعــاءُ الحاضرين للطفل بحسن النشأة ، والثبات على الحــقّ والخــير ، وتشــجيعهم له بالكلمــات الطيّبة ، ممّا يكــون له أعمق الأثر في نفسه ونشأته ..

فانظر أيّها الوالد المربّي ! رعـاك الله : أإذا كـان هـذا كلّه قبـلَ أن يبلـغَ الطفـلُ السابعةَ ، ويُـؤمرَ بالصـلاة ، فهل يعقـلُ أن يتهاوَنَ بالصلاة ، ويستهترَ بها بعد ذلــكَ .؟!

1(?) ـ وهذا الأسلوب التربويّ كان يعمل به الشيخ أحمد عــزّ الــدين البيــانونيّ رحمه الله في تربيته لأولاده ، ويــدعو إليه إخوانه ، وقد أثمر أحسن النتــائج والآثـــار في حيـــاة أبنائه وإخوانه ، وبلغني أنّ الشـيخ علي الطنطـاوي رحمه الله كـان يعمل بذلك ، فانظر إلى تشابه أسلوب الرجلين .

هيهــات هيهــات .! ولكنّ " الأمر " عنــدما يقــوم على غــير قاعــدة تربويّة راســخة ، وتمهيد مناسب ، فإنّما يكوْنُ أشبهَ بالنقشِ على المــاء ، أو البنــاء في الهـــواء ، ولنَ نجنيَ من وراء ذلك إلاّ العناءَ .

* لا تهاون بالصلاة .!

ممّا لا يخفى على كــــلّ مــــؤمنٍ أنّنَا مأمورونَ بإقامة الصـلاة .. وإقَامـةُ الصلاة أداؤها على أكمل وجـــهٍ وأحسن صـــورة ، من إتقان طهارتها ، والالـتزام بشـروطها ، وأداء أرْكانِها ، والاهتمـام بواجباتها وسـننها وآدابها .. فإنْ لم تُؤَدّ الصلاة بهذه الصـورة ، فإنّها تكـون صـورةً بغيْر حقيقة ، ضـعيفةَ الفَائدةِ ، عديمـةَ الأثر ، أشـبهَ بالعـادَةِ منها بالعبــادة ، ويــدخل مؤدّيها بهــذه الصــورة تحت قــــول الله تعـــالى : { **فَوَيْـــــلٌ لِلْمُصَلِّينَ** (4) **الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَــاهُونَ** (5) } المــاعون . ومن الســهو عن الصلاة تأخيرها عن وقتها ، أو التفريط بأحكامها وآدَابها ..

ومن الظواهر الاجتماعيّة الشـائعة أنّنا نرى كثـيراً من الآبـاء يتـبرّمون من سـلوك أبنائهم عندما يرونهم متسـاهلين بالصـلاة ، لا يبــالون بتأخيرها عن وقتها ، أو تضــييعها والتفريط بها .. ويتضَايقون منْ ســلوكهم ، وعنـــادهم لهم في كثـــير من الأحيـــان .. ويقولـون : إنّهم لم يقصّـروا معهم ، فقـدْ أمـروهم بالصـلاة منـذُ الصـغر ، وحثّـوهم عليها ، وعندما كبروا أخـذُوا يتهـاونون بها ، ويسْـتهترون .. فكيف حـدث الخلل .؟ وما أسبَابُه ومقدّماته .؟

إنّنا لو لاحظنَا سلوك أمثـال هـؤلاء مع أبنائهم عنـدما أمـروهمْ بالصلاة لرأينا أنّهم أمَـــروهم بهَا بتهـــاون ، ودعـــوهم إليهَا ، ولكنّهم لم تقترن دعوتهم بإظهَار أهمّيتها ، والتأكيد على خطَر التهـاون بها .. بل كـان سـلوكُهم العمليّ أن يفـرّط بالصـلاة لأتفه الأسـبَاب : فمع الانهمـاك في اللعب تضـيع الصـلاةُ .! وعند مشـاهدة المباريـات ، أو المسْلسـلات ، أو أفلام الكرتـون تضـيع الصلاةُ .! وفي الخـروج إلى المُتَنزّهـات لا متابعة في أداء الصـلاة .! وبـالنوم تضـيع الصـلاةُ .! ولا إيقــاظَ على صــلاة الفجر شفقة على الطفل .! والكبـار تضـيع منهم الصلاةُ .! بأسبابٍ أو بأتفهِ الأسباب ، ويرى الأطفـال منهم ذلك فيتكـرّسُ في وعيهم : أن لا أهمّيّة للصــلاة إذَا تعَارضت مع أدْنى مصلحة أو شبْهِ مصلحة ..

كـلّ ذلك وأمثاله وأشـباهه يغـرس في نفس الطفل التهـاونَ بالصــلاة .! وأن لا أهمّيّة لها ، ما دام أيّ شـيءٍ يشـغل عنها ، ويؤخّرها عن وَقتها ..

والموقف الصـحيح الـذي ينبغي على الآبـاء والمـربّين أن يأخـذوا به ، هو أنّ الطفل ما دام يـؤمر بالصـلاة عنـدما يبلغ السابعة ، تدريباً له وتعويداً ، فكذلك ينبغي أن يـؤمرَ بقضـائها إذا فاتته لضـرورة من

الضـرورات ، وأن يعلّم أن لا شـيء يقـدّم عليها ، ويعرّضها للخروج عنْ وقتها ، إلاّ ما كـان من الضـرورات الشـرعيّة المعْتـبرة ، وذلك ليرسخ في شعوره الأهمّيّـةُ العظمى للصـلاةِ ، فلا يمكن إذا كـبر أن يسـتهترَ بهَا أو يفرّط ..

وإنّ مـــرضَ الطفـــلِ مُنَاســـبة مهمّة لتعليمه أحكــامَ صَــلاةِ المــريضِ ، أذكر أنّ أخي الأكبر مرض وهو طفل مرضاً شـديداً ، فكان الوالدُ ـ رحمه الله ـ يذكّره بالصلاة ، كلّما صــحا من شــدّة الحمّى ، فلا يجيبه بشيء ، وعندما شفي من مرضه ، قال له : " إنّ الله تعـالى جعل للمـريض أحكامـاً خاصّـة، فيها تيسـير عليه وتخفيف ، وكـان بإمكانك أن تصـلّي قاعـداً ، أو مسـتلقياً ، وأن تـتيمّم إن عجـزت عن الوضــوء ، ولا تـــتركَ الصـــلاةَ .. أما وقد شـــفيت الآن ، فاقضِ ما فاتك من الصلوات " ، فكان هذا الموقف درساً لنا جميعاً .

ولا تقتصر تربية الطفل على الاهتمـام بالصــلاة ، وعــدم التهــاون بها ، بل ينبغي على المــربّي أنْ يغــرس في نفسه آداب الصلاة ، وَيعَلّمَه أحكامَها ، وينتهز لــذلك ما يلاحظُه عليه من بَعض الأخطاء ، أو يطـرح عليه بعض الأســئلة ليفيــده بما ينفعه من أحكام .

ومن المواقف النبويّة في ذلك ما روي عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ : (**يَا بُنَيَّ ! إِيَّاكَ وَالالْتِفَاتَ فِي الصَّلاةِ ، فَإِنَّ الالْتِفَاتَ فِي الصَّلاةِ هَلَكَةٌ ، فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ ، فَفِي التَّطَوُّعِ لا فِي الفَرِيضَةِ**) [1] .

فانظر إلى تنزّل النبيّ معه في الحكم ، بما يناسب سنّه ، تدريباً له على مراعاة هذا الأدب ، والالتزامِ به .

وحدّثني بعض الإخوة ، ولم يكن ملتزماً بدينه منذ نشأته ، فقال : لقد رأيتُ في طفولتي كلَّ من حولي من الرجال والنساء ، المعروفين ـ بين العامّة ـ بتمسّكهم بِدينِهم ، أنّهم يتركون الصلاةَ لأدنى سَببٍ : فيوم الغسيل ، ويوم الدعوة إلى وليمة ، ويوم النظافة العامّة في البيت ، وأمثال هذه الأمور وأشباهها .. كلّها أيّام لا صلاة فيها عندَ النسَاء ، إلاّ في آخر الليل ، فتقضى الصلوات إن بقيَ في المرأة عافية أو رمق لذلك ..

وإذا شُغل الرجلُ بأيّ عملٍ ، فالصلاة تُؤَخّر عن وقتها .. وقدْ تقضى بعد ذلك ، وقد لا تقضى .! فأيّ صورة عن الاهتمام

1(?) ـ رواه الترمذيّ في كتاب الجمعة برقم /537/ ، وقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ .

بالصــلاة تعطى من أمثــال هــؤلاء الآبــاء والأمّهات .؟!

وبعــدُ ؛ فلعــلّ أهمَّ ما يعمّق في نفس الطفل والناشئ مكانة الصـلاة ، وينْـأى به عن التهَاون بها : أن يُؤمَرَ بالسنن الروَاتب ، قبل الفــرائض وبعــدها [1] ، ويحثّ على الإكثــار من النوافل ، كصــلاة الضــحى ، وقيام الليل ، وتحيّة المسجد ، ويعلّم صلاة الحاجة وصــلاة الاسْــتخارة ، وأن يــرغّب بالمحافظة على الأذكـار بعْد الصـلاة ، وأنْ يعلمَ ما للمؤمــنين المقيمين للصــلاة من فضل ، وعلــوّ منزلة عنــدَ الله ، ممّا يحبّبه بالصـلاة ، ويجعله يحافظ عليها ، ويحــرص على أدائها في أوقاتها .

نسْــأل الله تعــالى أن يجعلنَا من أهْل قوله ســبْحانَه : { **ربّ اجعلــني مُقيمَ الصــلاة ، ومن ذرّيّــتي ، ربّنا وتقبّل دعاء** (40) } إبراهيم .

وقوله تعـــــالى : { **وأمُر أهلَـــــكَ بِالصلاةِ ، واصطَبِر عَلَيهَا ، لا نَسـألُكَ**

1(?) ـ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَـالَتْ قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ : (مَنْ ثَابَرَ عَلَى ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَـةً مِنَ السُّـنَّةِ بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ : أَرْبَع رَكَعَاتٍ قَبْلَ الظُّهْـرِ ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ المَغْرِبِ ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ العِشَاءِ ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْـلَ الفَجْـرِ) ، رواه الترمـذيّ في كتاب الصلاة بـرقم /379/ وقَـالَ : حَـدِيثٌ غَـرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

رِزقـــاً ، نحنُ نَرزُقُـــكَ ، والعَاقِبَـــةُ لِلتقْوَى (132) } طه .

* أبناؤنَا وآداب المسجد .!

الأدب عنـــــوان المســــلم ، وهو رُوح سَارية في كلّ شيء من دين الله ، يضفي عليه مســحة الكمــال ، وبهجة الجمــال ، ويدلّ الأخذُ به على صــدق التوجّه إلى الله والرغبة بمرضاته .

والمســاجد بيــوت الله تعــالى شــرّفها الله بالنســبة إليه ، وجعلها مثابة عبــاده ، ، ومهبط فضــله ورحماته ، وهي أحبّ بقــاع الأرض إليه ، فـــــرض لها من الحقـــــوق والآداب ما يؤكّد على المـــؤمن تعظيمها ، ويدلّ على مزيد خصوصيّتها ، فقـال تعـالى : { **إِنَّمَا يَعْمُـرُ مَسَـاجِدَ اللـهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَأَقَامَ الصَّــلاةَ ، وَآتَى الزَّكَــاةَ ، وَلَمْ يَخْشَ إِلاّ اللــهَ ، فَعَسَـــــى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُــــوا مِنْ الْمُهْتَدِينَ** (18) } التوبة .

وقال تعالى : { **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ ، وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ** (36) **رِجَالٌ ، لا تُلْهِيهِمْ تِجَـارَةٌ وَلا بَيْــعٌ عَنْ ذِكْــرِ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، يَخَـافُونَ يَوْمـاً تَتَقَلَّبُ فِيـهِ الْقُلُـوبُ وَالأَبْصَارُ** (37) } النور .

وهي من شعائر الله الـتي قـال فيها :
{ **ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللـهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ** (32) } الحجّ .

ولقد كـــان أوّل عمل قـــام به النَّبِيُّ ﷺ عندما وصل المدينة المنوّرة بنـاء مسـجده الشـــريف ، ولم تكن مهمّة المســـجد في الإســـلام قاصـــرةً على أداء الصـــلوات فحسب .. بل كانت رسـالةً شـاملة للحيـاة الإنسانيّة ، والنشاطات الاجتماعيّة بمختلف ألوانها .. عرف ذلك المسـلمون الأوّلـون ، فعظّمـــوا المســـاجد ، وأدّوا حقّها عليهم ، فكانت عامرةً بكلّ هـدى ، ومنطلقـاً لكـلّ خـير .. وكـانت نقطة الـدائرة في المـدن الـتي يؤسّســونها ، وهي أوّل ما يبتــدءون إنشاءه في المدن التي يفتحونها .. وكـانت عمارة المساجد في تلك العصور بما شرع الإســلام من رســالتها العامّة الشـــاملة ، يعطي كـلّ نـاظر في أحـوال المسـلمين صــورةً مصــغّرة عن مســتوى الحضــارة الرفيع الذي بلغته أمّة الإسلام .

هذا ، ومن أهمّ آداب المسجد :

1 ـ عمارة المسـجد بـذكر الله تعـالى وطاعته ، وتلاوة كتابه ومدارســـــــته ، والحرص على حضور مجـالس العلم فيه ، ففي الحـديث الصـحيح ، عَنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ ﷺ

قَــالَ : قَــالَ رَسُــولُ اللــهِ : (**.. وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُـوتِ اللـهِ يَتْلُــونَ كِتَــابَ اللــهِ ، وَيَتَدَارَسُــونَهُ بَيْنَهُمْ ، إِلاَّ نَــزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّــكِينَةُ ، وَغَشِـــــيَتْهُمُ الرَّحْمَـــــةُ ، وَحَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْــدَهُ ، وَمَنْ بَطَّأَ بِــهِ عَمَلُــهُ لَمْ يُسْــرِعْ بِــهِ نَسَبُهُ**) [1] .

2 ـ ومن آداب المسـجد : تعلّق القلب به ، والحــرص على زيارتِه مَا أمْكن ، ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ قَــالَ : (**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللــهُ فِي ظِلِّهِ يَـوْمَ لا ظِــلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ : الإِمَــامُ الْعَــادِلُ ، وَشَابٌّ نَشَــأَ فِي عِبَـادَةِ رَبِّهِ ، وَرَجُـلٌ قَلْبُــهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَــاجِدِ ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللــهِ اجْتَمَعَا عَلَيْــهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْــهِ ، وَرَجُــلٌ طَلَبَتْــهُ امْــرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ ، فَقَـالَ : إِنِّي أَخَـافُ اللهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بصدقة فأَخْفَاها ، حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُـلٌ ذَكَـرَ اللــهَ خَالِيــاً فَفَاضَــتْ عَيْنَاهُ**) [2] .

1(?) ـ رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء عن أبي هريـرة 2699/ / ، والترمـذي وأبو داود وابن ماجة وأحمد .

2(?) ـ رواه البخاريّ في كتاب الأذان /620/ـ ، ومسـلم في كتاب الزكاة /1712/ والترمذيّ ومالك وأحمد .

3 ـ ومن آداب المســـجد : ذكر الله تعالى عند دخوله ، وعند الخروج منه ، فقد كان رسول الله ﷺ إذا خرج إلى الصلاة قال : **(بسمِ اللهِ ، آمنتُ باللــهِ ، تَـوكّلتُ على اللهِ ، لا حَولَ ولا قُوّة إلاّ باللــهِ ، اللهم إنّي أســألُك بحـقّ الســائلينَ عليكَ ، وبحقّ مخـرجِي هـذا ، فـإنّي لم أخرجْه أشَراً ولا بطَراً ، ولا رِيــاءً ولا سُمعةً ، خَرجتُ ابتغاءَ مَرضاتِكَ ، واتّقاءَ سَخطِكَ ، أسـألُكَ أن تُعيـذَنِي مِن النارِ ، وتُدخِلَني الجنّةَ)** [1] .

ـ ويســـتحبّ أن يقـــول عند دخـــول المســـجد : " **أعُـــوذُ باللـــهِ العظيمِ ووجهِهِ الكريمِ ، وسُلطانِه القـديمِ ، مِنَ الشيطانِ الرجيمِ ، باسمِ اللــهِ ، والحمدُ للهِ ، اللهمّ صَلّ على سـيّدِنا محمّــدٍ ، وعلى آلِ محمّــدٍ وســلّمْ ، اللهمّ اغفِر لي ذُنُـــوبِي ، وافتَح لي أبــوَابَ رحمتِــكَ** " ، وعند الخـــروج من المســـجد يقـــول مثله ، إلا أنه يقـــول : " **وافتَح لي أبوابَ فضلِكَ** " [2] .

1(?) ـ رواه ابن الســني بإسـناد ضـعيف ، وعـزاه في " فقه السـنّة " إلى أحمد وابن خزيمة وابن ماجة ، وقـال : حسّـنه الحافظ ، انظر 1/217 ، وحسّنه العراقيّ في تخريج أحاديث الإحياء 1/ 323 .

ـ ويسـنّ أن يقـدّم رجله اليمـنى في الدخول ، ورجله اليسرى في الخروج .

4 ـ ومن آداب المسـجد : صـلاة ركعتين **تحيّة المسجد ،** فيسنّ لمن دخل المسجد ألاّ يجلس قبل أن يصلّي ركعـتين لحديث أبي **قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الأَنْصَارِيِّ** **قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ** : (**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ**) [1] .

5 ـ ومن آداب المسـجد : الحـرص على نظافة المسـجد وطيب رائحته ، وتنزيهه عمّا لا يليق به من رفع صـوتٍ ، أو إلقاء شـيء من الفضـلات ، ففي الحـديث عن أنس أنّ النـبيّ قـال : (**البُصَاقُ في المسجِدِ خَطِيئةٌ ، وكَفّارَتُها دَفنُهَا**) [2] .

ـ ورأى النـبيّ في المسـجد نخامة فغضب وحكّها .

2(?) ـ وهي مجمـوع روايـات ما جـاء في صـحيح مسـلم ، وسنن أبي داود بإسناد جيّد ، وسنن النسائي .

1(?) ـ رواه البخـاريّ في كتـاب الجمعة /1097/ ومسـلم والترمذيّ وأحمد .

2(?) ـ البخاري 1/ـ 428 ، ومسلم (552)ـ ، وأبـوداود (474) والترمذي (572) والنسائي (2/50، 51)

فعلى المـربّي أن يغـرسَ هـذه الآدابَ وما أشـــــبهها في نفسِ الطفل والناشئ ، وخيرُ ما يُعينه على ذلكَ :

ـ أنِ يصحبَ مَعه الطفلَ إلى المسـجدِ ، ويلاحظَ سلوكَه وأدبَه ، وينبّهه ويوجّهه .

ـ أنْ يـرى الطفـلُ في سـلوك والـده ومربّيهَ : محبّـةَ المسـاجدِ ، والحـرصَ على عمـارةِ المسـاجدِ وإحيـاء رسـالتِها إيمانيّـاً وحسّيّاً ، وكيفَ يكونُ سـلوكُ المـؤمن في المسـاجدِ ؟ وكيْف يكـونُ الالـتزامُ بآدابِها ، وتعظيمُ حرماتِها ؟

* أبناؤنَا والصدَقة .!

إنّ منْ أعظم مقتضـيات الإيمـان بالله واليـوم الآخر إنفـاق المـال في سـبيل الله تَعالى وابتغـاء مرضـاته ، وسـمّيَ : صـدَقةً لأنّه يدلّ على صدق صـاحبه ، وقـوّة إيمانه باللـه تعـالى ويقينه ، ورغبته في مرضــاة الله ومثوبته ، إذ إنّ حُبّ التملّك من أوثق العواطف الفطريّة ، الـــتي لا يمكن نزْعُها من الإنســـان ، أو الوقـــوف في وجهها ، والإســلام لم يقلّل منْ شــأنها ، ولم ينظر إليها نظـرة اسـتهانة أو اسـتخفاف ، وإنّما أقرّهَا ، ووضع لها ضوابط وحدوداً ، وهذّب أثرتها وجشعها ، وجعلها مضبوطة العلاقات ، موزونـــةَ الـــدوافع والرغبـــات : فـــراعى رغبتها الخاصّةَ ومصـلحتها ، وحـقّ الجماعة عليها ، ومســئوليّتها عن الآخــرين ، وجمع لها بين تحقيق مصلحتها العاجلة في الـدنيا ، وسعادتها الآجلة في الآخرة ..

وكان من أهمّ الأحكـام التهذيبيّة الـتي شـرعها الإسـلام لتحقيق ذلك : الحثّ على الصـــدَقة ، والـــترغيب بإنفـــاق المـــال في سـبيل الله ، وقد استفاضت آيـات الكتَـاب العزيز في بيان ذلك ، يقول الله تعالى : { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـــوا أَنفِقُـــوا مِمَّا**

رَزَقْنَاكُمْ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَـأْتِيَ يَـوْمٌ لا بَيْــعٌ فِيــهِ ، وَلا خُلَّةٌ ، وَلا شَــفَاعَةٌ ، وَالْكَـافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ (254)ـ } البقرة .

ومثّل الله تعـالى لعظم ثـواب المنفق ماله في ســبيل الله ، وما يناله من كــريم الأجر والجــزاء فقــال ســبحانه : { **مَثَــلُ الَّذِينَ يُنفِقُـونَ أَمْـوَالَهُمْ فِي سَـبِيلِ اللهِ ، كَمَثَلِ حَبَّةٍ ، أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ، فِي كُـلِّ سُــنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللــهُ يُضَــاعِفُ لِمَنْ يَشَــاءُ ، وَاللــهُ وَاسِــعٌ عَلِيمٌ** (261)ـ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَــبِيلِ اللــهِ ، ثُمَّ لا يُتْبِعُــونَ مَا أَنفَقُـوا مَنًّــاً وَلا أَذىً ، لَهُمْ أَجْـرُهُمْ عِنْــدَ رَبِّهِمْ ، وَلا خَــوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** (262) } البقرة .

وفي الحثّ على ابْتِغَــاءَ مَرْضَــاةِ اللــهِ تعــالى ومثوبته من وراء بـــذْل الصـــدَقة ، والإنفاق فِي سَبِيلِ اللهِ ، يقول سبْحانه : { **وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَـاءَ مَرْضَاةِ اللهِ ، وَتَثْبِيتـاً مِنْ أَنْفُسِـهِمْ ، كَمَثَــلِ جَنَّةٍ بِرَبْــوَةٍ ، أَصَــابَهَا وَابِــلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَاً ضِعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** (265) } البقرة .

ويحــذّر الله تعـالى عبـاده من البخل ، فإنّ الإنسان لا يضرّ بذلك إلاّ نفسه ، والله غِــنيّ عن عبــاده ، فيقــول تعــالى : { **هَا أَنْتُمْ هَــؤُلاءِ تُـــدْعَوْنَ لِتُنفِقُــوا فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللــهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَـــرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ، ثُمَّ لا يَكُونُــوا أَمْثَالَكُمْ** (38) } سورة محمّد .

والإسلام وهو دين الاعتدال والاتّـزان ، يحثّ على الاعتـــدال في الإنفـــاق : فلا إسـراف ولا تبْـذير ، ولا بخـلَ ولا تقتـير ، يقــول الله تعــالى : { **وَلا تَجْعَـلْ يَـدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ، وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْـطِ ، فَتَقْعُـدَ مَلُومـاً مَحْسُـوراً** (29) **إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً** (30) } الإسراء .

ويقـــول ســبحانه : { **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُـوا لَمْ يُسْـرِفُوا ، وَلَمْ يَقْتُـرُوا ، وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً** (67) } الفرقـان .

ويحذّر الله تعالى عباده من الاسـتجابة لوساوس الشيطان ، في صدّه عن الإنفاق في سَبِيلِ اللهِ تعــالى ، وتخويفه من الفقر

، فيقول سبحانه : { **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** (268) } البقرة .

والصدَقة تدلّ على نموّ عاطفة التوافق الاجتماعيّ واستوائها ، وتجرّد الإنْسان عن الأثرة وتقديس الذات ، وهي تطفئ غضبَ الربّ ، وتُطفئُ الخطيئة كما تطفئ الماء النار وكلّ صدَقة زكاة ، وليست الزكاة صدَقة ، وقد قرن الله الزكاة بالصلاة في أكثر من عشرين موضعاً من كتاب الله ، ممّا يدلّ على أهمّيّتها وعلوّ منزلتها .

وأبواب الصدَقة ومفهومها الشرعيّ لا تقتصر على إنفاق المال في وجوه البرّ والمعروف ، وإنّما كلّ عمل من أعمال الخير يعدّ صدقةً لصاحبه ، يجزئ عن إنفاق المال في سبيل الله ، كما جاء في الحديث عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ : (**يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ ؛ فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ ، وَأَمْرٌ بِالمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنِ**

الْمُنْكَـــرِ صَـــدَقَةٌ ، وَيُجْـــزِئُ مِنْ ذَلِـــكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى) [1] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ عَنْ رَسُـولِ اللـهِ قَالَ : (**كُلُّ سُـلامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْـهِ صَدَقَةٌ ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّـمْسُ ، قَـالَ : تَعْـدِلُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ صَـدَقَةٌ ، وَتُعِينُ الرَّجُــلَ فِي دَابَّتِــهِ فَتَحْمِلُــهُ عَلَيْهَا ، أَوْ تَرْفَــعُ لَــهُ عَلَيْهَا مَتَاعَــهُ صَــدَقَةٌ ، قَــالَ : وَالْكَلِمَــةُ الطَّيِّبَــةُ صَـدَقَةٌ ، وَكُـلُّ خُطْـوَةٍ تَمْشِـيهَا إِلَى الصَّـلاةِ صَـدَقَةٌ ، وَتُمِيـطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ)** [2] .

ـ حقـائق أساسـيّة على المـربّي أن يغرسها في نفس الطفل :

1 ـ الاهتمـام بالصـدَقة ، وإنفـاق ما تيسّـــر من المــــال بين الحين والآخر في وجوه الخير .

2 ـ ترسـيخ الاعتقـاد أنّ الصـدَقة لا تفريط فيها بالمـال ، وإنّما يـدّخر عند الله تعـالى ، ويجـده المـؤمن ، وهو أحـوج ما يكون إليه .

1(?) ـ رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها برقم /1181/ .

2(?) ـ رواه مسلم في كتاب الزكاة برقم /1677/ .

3 ـ أنّ على المؤمن أن يكون معتــدلاً في إنفاقه ، فلا إسراف ولا تقتير .

4 ـ وكـان من هـدي النـبيّ تربيـةُ الصحابة على عفّة النفس ، والتـنزّه عن أمـوال الصـدقات ، إلاّ إذا كـان الإنسـان مضـطرّاً إليها ، فاليد العليا خـير من اليد السـفلى ، والعمل لإعفـاف النفس عن المسألة والحاجة عبادة لله ، وهو خـير من كثير من نوافل العبادات .. والمؤمن القـويّ خير وأحبّ إلى الله من المـؤمن الضـعيْف .. وعنـدما يأخذ الإنسـان نفسه بعزيمة الجـدّ والعمل ، يبـارك الله له في كسب يمينه ، ويكـون له تـأثيرُه الإيجـابيّ الفاعل في بنـاء المجتمع ورقيّه .

* كيفَ يستفيد أطْفالنا من رمضان .؟
ونحبّبهم بالصيام .؟

في كــلّ عبــادةٍ من العبــادات نظــام تربــويّ دقيق ، يشــمل كــلّ فئـات الأمّة ، ربّما اهتـدى إلى جـانب منه بعض النـاس ، فنعمــــوا بنفحاته وبركاته ، ولكنّ أكــــثر المسلمين عنه بعيدون وغافلون ، والعبادة تؤدّى كعـادة من العـادات ، ومن ثمّ فهم لا يقطفــون ثمــرات العبــادة ، ولا تحقّق في حيـاتهم مقاصـدها وأهـدافها .. فمـتى نتّخذ من تكرار العبَادة في حياتنا مناسبة للتفهّم لها ، وحسن الاســتفادة منها .؟! وســبيلاً للغــوص في أعماقها ، واكتشــاف دررها ولآلئها .

وإنّه لينبغي على الوالــدين أن يغرسَــا في نفــوس الأطفــال المعــاني التالية عن الصــيام ، على حسب ما يتناسب مع ســنّ الطفل واستعداده :

1 ـ أنّ صـيام شـهر رمضـان ركن من أركــان الإســلام ، لا يتمّ إســلام المســلم بدونه .

2 ـ فضل الله العظيم ، وثوابه الجزيل لمن يصوم رمضان إيماناً واحتساباً .

3 ـ أنّ الصوم يربّي في نفس المـؤمن رقابة الله تعــــالى ، ومحبّته وخشـــــيته ، وإخلاص العمل لوجهه الكريم .

4 ـ وعلى الصــائم أن يتحلّى بــآداب الصيام ، فيحفظ سمعه وبصــره ممّا حــرّم الله ، ويكـــــفّ لســـــانه عن اللغو والغيبة والنميمة ، ولا يــــرفث ، ولا يفسق ، ويعمر أوقاته بتلاوة القـــرآن الكـــريم ، وذكر الله تعالى وطاعته ، وكثرة دعائه والتضرّع إليه .

5 ـ والصـــيام يعلّمنا ضـــبط الإرادة ، وتربيتها ، وتقويتها ، وتهذيب رغبات النفس ، فما كلّ ما تشتهي تستطيع الوصــول إليه ، وما كــلّ ما تحــرص عليه من مصــلحتها وخيرها أن تبلغه وتناله ..

6 ـ والصيام يربّي نفوسنا على أنّ في المــأكولات والمشــروبات والمشــتهيات ما هو من الخبـــائث ، الـــتي حرّمها الله على الإنسان ، فينبغي عليه أن يعـفّ نفسه عمّا حرّم الله عليه ، ليكون عبـداً لله خالصــاً ، ومؤمناً بالله تعالى حقّاً ..

وإذا أردنا أن يستفيد أطفالنا من شــهر رمضــــان ، وينشـــئوا على حبّ الصـــيام ، فعلينا أن نتّبع ما يلي :

1 ـ أن نحسن استقبال شهر رمضان ، بما يتناسب مع قـــــدره ومكانته ، ونبتهج بقدومه ، الابتهــاجَ الشــرعيّ الــذي يحقّق أهدافَ الصيام ومَقاصده .

2 ـ ألاّ نـأمر أطفالنا بالصــوم إلاّ إذا قــدروا عليه ، فــالأمر بالصــوم يختلف عن الأمر بالصلاة ، وألاّ نتهاون بأمرهم بالصوم إذا قدروا عليه بدافع الحبّ والشفقة .

3 ـ وأن نقـدّم لهم الهـدايا والجـوائز اليوميّة المحبّبة بالصيام ، كما كان السـلف يفعلون .

4 ـ أن يكـون للأسـرة نظـام محبّب للنفوس خـاصّ برمضـان ، يحقّق مقاصـده وأهدافه ، من حيث العـــادات في المأكل والمشرب ، والنوم ، وحسن الاستفادة من الــوقت بما يتلاءم مع فضل هــذا الشــهر وخصائصه ..

5 ـ أن يتمّ إعْلانُ شعارات في رَمضان على مسْتوى الأسرة ، تتناسب مع قدسـيّة هذَا الشـهر وعظيم فضـائله ، وأن نحـرص على تربية أنفســـنا وأولادنا عليها ، ومن ذلك : الجــود والإحســان والصــدقة على الفقــراءِ والمســاكين ، واغتنــام الــوقت والاجتهـــاد في العبـــادة ، وكـــثرة التلاوة

للقرآن الكـريم ، وحفظ اللسـانِ من اللغو والغيبة والنميمة ، وحسن الخلق ، والتحلّي بالصبر وسعة الصدر .

أما والله لو علم الوالدان ما في شـهر رمضـان من العـون لهم على تربية أولادهم ، وسـمّوّ بنـائهم النفسيّ والاجتمـاعيّ لكـانَ لهم مع هذا الشهر شأن آخر ..

أخي الوالد المـربّي ! ربّما سـألك طفلك هذا السؤال : لماذا نصـوم .؟ وربّما لم يتجرّأ فلم يسـألك ، فلا مـانع أن تسـأله أنت هذا السؤال ، وتجيبه بما يناسب سـنّه واسـتعداده ، ليـؤدّي العبـادة لله تعـالى بـوعي لمقاصـدها ، وفقه لحكمها وآدابها ، وليكـون له من ثمراتها في نفسه ، وآثارها في سـلوكه وعلاقاته مَا يدفعه إلى التمسّكِ بها وعدم التخلّي عنها .

فهل نعي ما في هـذا الشـهر الكـريم من الخـيرات والبركـات ، والثمـرات الطيّبـات .؟ وهل نحسن اسـتثمارها في تربية نفوسـنا وأولادنا .؟

إنّا لـــــــــنرجو ذلك بتوفيق الله ونتمنّـــاه ، والله الموفّق والهـــادي إلى سواءِ السبيل ..

* أطفالُنَا على مائدة القرآن !

أثر القرآن الكـريم في تكـوين الأمّة :

إنّ القـرآن الكـريم هو حبل الله المـتين ، الذي جذب العرب المتفرّقين في البوادي ، المختلفين في الطبع والعادة ، وسَلكهم في أمّة واحـدة ، وجمعهم على دين واحد ، وشـريعة واحـدة ، ولسـان واحد ، وألّف بينهم على خلق واحد ، ونهج في الحيـــاة واحد ، فكـــــوّن منهم دولة بعد أن حقّق فيهم عناصرها .

وبـــالقرآن خـــرج العـــرب من بلادهم غـــازين : يفتحـــون الشـــرق والغـــرب ، وتسْتسـلم لهم قلاع الــــروم وحصـــون فارس .

وبـــالقرآن دخل النـــاس في دين الله أفواجاً ، وعلى القـرآن أقـامَ المسـلمون دولتهم ، وأسّسوا علـومهم .. فلمّا وهنت صـلتهم بـالقرآن وهنت دولتهم ، وضـعف شأنهم ، ثمّ ذهبت ريحهم ، وقويت شوكة أعـداء الله عليهم ، واسـتذلّهم من كـان في يـوم من الأيّـام يعيش تحت عطفهم ورحمتهم .!

ولا يصلح آخرنا إلاّ بما صـلح به أوّلنا ، ولا ملجأ لنا إنّ أردنا النهضة والرفعة في

حياتنا الاجتماعيّة والتعليميّة والتشـــريعيّة والاقتصـــاديّة إلاّ بـــالعودة إلى القـــرآن العظيم .. فـــــالقرآن هو النعمة العظمى التي اختصّ الله بها الأمّة الإسـلاميّة : فيه نظـــام الحيـــاة كلّها : فيه الصـــلة ما بين الإنســـان وربّه ، وتنظيم ما بين المـــرء وأسـرته ، وفيه حـدود العلاقة بين الفـرد ومجتمعه ودولته ، وفيه منهجُ الحكم والسياسة ، كما أنّ فيه الأخلاق والفضـــائل ، وفيه نظـــام علاقة الدولة المسـلمة بغيرها من الـدول ، في السـلم والحرب ..

والقـرآن الكـريم هو الكتـاب القـادر على أن يجمع شـــمل الأمّة على تباعد أقطارها ، واختلاف لغاتها وأجناســـها ، وتبـاين تقاليـدها وعاداتها ، ويصـهرها في بوتقة الحقائق والمبـادئ الـتي جـاء بهَا .. لقد نشر القـــرآن لغة العـــرب فـــامّحت أمامها لغات باختيـار أهلها ورضـاهم ، في الوقت الذي حاولت أنظمة قاهرة ، وأمم غالبة أن تطمس حضـارات أمم أخـرى ، ولغاتها وثقافاتها ، فلم تقـــدر على ذلك ، ولم تســـتطعه ، بل ازدادت تلك الأمم تمسّـكاً بثقافاتها ولغاتها ، وأصـرّت على مجافاتها للأمم الغالبة لها ، بينما كـــانت

الأمّة المســـلمة الفاتحة محبوبة من أمم الأرض قاطبـــةً ، يشـــهد بـــذلك القاصي والداني ، والعدوّ والصديْق على حدّ سواء ..

وليس مثل القـــرآن الكـــريم منهجـــاً وكتاباً ، يحثّنا على الأخذ بأسـباب السـبق في ميـــادين الحيـــاة كلّها ، ويـــدفعنا إلى ارتيـــاد منـــاكب الأرض ، وســبر أغوارها ، واكتشـاف أسـرارها ، ويـأبى علينا إلاّ أن نكون قادة وسادة ، في مقدّمة الركب ..

فـأين تـذهب العقـول من بعض قومنا .؟! وهم يدبرون عن هدي القرآن الكـريم ، ويجـــافون منهجه ، ويتســـكّعون ذات اليمين وذات الشمال ، ويولّـون وجـوههم قبل المشرق تارةً ، وقبل المغرب أخـرى ، يبحثـــون عن المنـــاهج ، ويـــتيهون وراء السبل ، وفي أيديهم النور المبين ، وأمام أبصـــارهم الصـــراط المســـتقيم .. والله تعـــالى يقـــول : ﴿ **وإنّه لـــذكرٌ لـــكَ ولقومِكَ ، وسـوفَ تُسـألُونَ** (44)ـ ﴾ الزخرف .

والمخـــــرج من هـــــذا الواقع المجافي للقرآن أن يُنشّـأَ أطفالنا على مائـــــدة القـــــرآن العظيم ، يغترفون من حياضه ، وينهلون من

معينه ، ولا يخلطون شيئاً من هديه بغيره ..

هـذا ، وأهمّ الحقـائق والمعـاني الـتي ينبغي أن يُنشّأ عليها الأطفال :

1 ـ حبّ القـرآن وتعظيمه وتكريمه ، والأدب مع المصحف .

2 ـ أنّ القـرآن الكـريم منهج حيـاة المسلم ودستورها .

3 ـ الحرص على تلاوة القرآن وتدبّره .

4 ـ الاهتمـام بحفظ القـرآن الكـريم ومراجعته .

5 ـ معرفة هـدي النـبيّ مع القـرآن الكريم ، والحرص على اتّباعه .

6 ـ قصص من معرفة هـدي السـلف مع القـــرآن الكـــريم ، والحـــرص على اتّباعهم .

7 ـ الحرص على اتّبـاع هداية القـرآن الكريم ، في كلّ شأن من شئون الحياة .

وعلى الوالد المربّي أن يأخذَ بالوصايا التالية في تعامله مع الطفل ، لتنشـــئته على حبّ القرآن الكريم وحسن التعامـل معه :

1 ـ حبّب ولدَك بحفظ القُرآنِ ، ورغّبه بذلك بمختلف الأساليب التربويّة الحكيمة .

2 ـ احـذر من تنفـير ولـدك من حفظ القرآن الكريم ، بأن تكرهه على الحفظ ، أو تكلّفه فـــــوق طاقته ، أو تتّخذ معه أساليب في العقوبة غير تربويّة .

3 ـ عوّد ولدَك على الاهتمَام بمُراجعة ما يحفظ من القرآن الكريم بصـفة دوريّة ، كيلا يتفلّتَ منه .

4 ـ اغرس في نفس طفلك الحـرص على فهم القـــرآن وتـــدبّر معانيـــه ، بما يناسب ســـنّه ونمـــوّه ، وفسّـــر له من القرآن ما يناسب سنّه .

5 ـ عوّد ولدَك على أن يكـونَ له ورد يـــوميّ من تلاوة القـــرآن الكـــريم ، لا ينشغل عنه بشيء .

أيّها المرَبّي .! إنّ تربية الطفل على حبّ القرآن والقرب من مائدته ، يختصر لك طريقاً طويلاً من جهد التربية وأعبائِها .. وأظنّ أنّك لا تســـــتغني عن ذلك ، فاصـدق في الأمر ، واعـزم على الرشد ، ولا تـــرضَ لنفسك بـــالعجز ، واللـــه وليّ التوفيق والسداد .

[illegible]

يقول الله تعالى : { **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً** (9) } الإسراء .

أخي الوَالِد ! أختي الوالدة ! إنّ جزءاً أساسيّاً من مسئوليّة الوالدين عن أولادهم أن يُهيّئوا لهم النشْأة الطيّبة ، والأجواء الإيمانيّة النقيّة ، التي يجدون فيها القدوة الحسنة ، وينعمون بالصحبة النافعة الصالحة ، ويتنسّمون الروح الخالية من أيّ عكرٍ أوْ كدَر .

ولا شكّ أنّ حلقات تحفيظ القرآن الكريم المنتشرة في جميع الأحياء هي خيرُ ما يتحقّق فيه ذلك على أكمل وجهٍ وأتمّه ، فهي محْضن إيمانيّ تربويّ ، يحقّق للفتى والفتاة الناشئين مزايا كثِيرة ، وينمّي شخصيّتهم نموّاً سويّاً متوازناً ، ونحن نعدّد هنا أهمّ هذه المزايا ، ولا نسْتطيع إحصاءها :

1ً ـ فهي تهيّئ لهم القدوة الحسنة ، والتوجيه السليم ، والتربية الإيمانيّة على

يد أساتذة ومـربّين من أهل القـرآن الـذينَ هم أهل اللهِ تعالى وخاصّتهُ .

وما أحـــوج الناشئ والناشـــئة إلى أن يـروا أخلاق القـرآن وآدابه ، تتجسّـد فيمن يتلقّون عنهم القرآن ، ليأخـذوا عنهم العلم والعمل معاً ..

2ً ـ وحلقــات القــرآن تهيّئ للفــتى والفتــاة الصــحبة الصــالحة ، لأتــراب لهم ينشئون النشـأة الصـالحة الـتي يبْحث عنها الآباء والأمّهـات ، وقد لا يجـدونها في كثـير من الأوســاط الاجتمَاعيّة ، وإنّ كثــيراً من الآبــاء والأمّهــات يحــارون كيف يهيّئــون لأبنائهم وبناتهم تلك الصحْبة ، ولكنّها بحمد الله تعــالى متــوفّرة في أجــواء حلقــات القـرآن الكـريم على أحسن صـورة بـإذن الله تعالى .

3ً ـ وحلقـات القـرآن تهيّئ للناشـئين العلم الشـرعيّ بأحكَـام دين الله تعـالى ، فلا تتســـرّب إليهم المفــاهيم والأفكـــار المنحرفة عن دين الله عــزّ وجــلّ ، الــتي تغــزو بلاد المســلمين بلا هــوادة .. وقلما ينجو منها النـــاس ، فكيف بالبعيـــدين عن العلم والعلماء .؟

4 ً ـ وحلقات تحفيظ القرآن الكريم هي المحضن الــتربويّ لغــرس قيم الإســلام ومبادئه وآدابه ، فحفظ القـــرآن الكـــريم والتربية على أخلاق القرآن وآدابه صنوان ، لا ينفـكّ أحـدهما عن صـاحبه ، فـأيّ والد أو والــدة لا يريد أن يــرى في ســلوك أولاده الـــــــبرّ به وحسن المعاملة ، والبعد عن العقوق ، ومظاهره الكثيرة المتفشّية .؟!

وما أكثر ما نسـمع الشـكاوى المريـرة من الآبـاء والأمّهـات عن عقـوق أولادهم ، وإســاءاتهم الــتي قد تبلغ حــدّ الضــرب والإهانة ، مع أنّهم يحســـنون إليهم كـــلّ الإحســان ، ثمّ لم يــرَوا منهم إلاّ الإســاءة والعُقُـــوق .. وعنـــدما يلتفتـــون بدقّة إلى أســـباب ذلك يـــرون : **إهمـــال التربية القويمة منذ الصغر من جهة ، وترك الأولاد إلى رفاق السوء يعيشون بهم فساداً وإفساداً من جهة أخرى** ..

5 ً ـ وانتســاب الناشئ إلى حلقــات القــرآن الكــريم وانتظامه فيها ســببٌ من أهمّ أسـباب تفتّح مداركه العقليّـةِ ، ونمـوّه المعرفيّ المبكّر ، وظهور طاقاته الإبداعيّة ، وتفوّقه الدراسيّ على أقرانه ، وهـذا أمر ملاحظ مشــــــهود ، بخلاف ما يظنّه خطأ

بعض الآبــــاء والأمّهـــات من خلاف ذلك ، فيمنعــون أبنــاءهم وبنــاتِهم عن الالــتزام بحلقـــات القـــرآن ، وهي ســـرّ نجـــاحهم وتفوّقهم ، فيخسرون بذلك دينهم ودنيـاهم ..

إنّ القرآن الكريم كتـاب هداية معجز ، وهو منزّل بلسـان عـربيّ مـبين ، وفيه من العلـــوم والمعـــارف الدينيّة ، والأخلاقيّة ، والاجتماعيّة ، والحضـــاريّة ما لا يعــــرف لكتــاب غــيره ، فمن أراد النمــوّ اللغــويّ المبكّــر، والــذوق اللغــويّ الســليم فدونه كتـــاب الله تعـــالى ، ومن أراد العلــــوم والمعـــــارف ، والثقافـــــات والآداب على اختلاف أنواعها ، وتعــدّد مناحيها واتّجاهاتها فدونه كتـاب الله ، ومن أراد أن يتّصل أوّلاً وآخراً بسـبب من عناية الله تعـالى وثيق ، وباب لا يغلق من أبواب العطاء والتوفيق ، فليصل سببه وسبب من يلوذ به ، ويريد له الخير من أبنائه وبناته بكتـاب الله تعـالى . ألم يقل النـــبيّ : (**خـــيرُكُم مَن تَعلّمَ القُرآنَ وعلّمَه**) [1] .

1(?) ـ رواه البخاري والترمـذي عن علي ، وأحمد وأبو داود والترمـــذي وابن ماجة عن عثمـــان ، ورواه ابن ماجة عن سـعد ، بلفظ خيـاركم .. انظر كشف الخفـاء ومزيل الإلبـاس 1/472/ .

ولا ينبغي أن تفهم هـــذه الخيريّة على نحو واحد من أنحائها ، فتكون قاصرة على جانب الأجر والمثوبة ، معزولة عن الخيريّة في الجـوانب الأخـرى الـتي منها مصـالح الدنيا ومطالبها .

ومثل ذلك أيضـــاً قوله : (**أهـــلُ القُرآنِ هُم أهلُ اللهِ وَخَاصّتُهُ**) [1] .

ولكنّ ذلك رهن بتلقّي القـرآن الكـريم للفهم والعمل ، والحـــرص على التـــأدّب بآدابه والالتزام بهديه في كلّ شأن ..

6ً ـ وحلقات القرآن تربّي الناشئ على الجـــدّ وعلـــوّ الهمّة ، وتعـــوّده على تنظيم حياته وحفظ أوقاته ، وتـربّي فيه الشـعور بالمسئوليّة ، والقدرة المبكّرة على تحمّلها ، فلا عجب أن كـان شـباب القـرآن رجـالاً مكتملين ، وهم في أعمار الزهور ، وفتياناً ناضجين ، وهم أبناء بضع سـنين .. ومن ثمّ فـإنّ جماعـات تحفيظ القـرآن الكـريم في كـــلّ بلد من بلاد المســلمين هم حمـــاة حصون الأمّة من داخلها ، وإنّ العمل الذي تضـــطلع به لهو العمل الرائد المـــبرور ،

1(?) ـ رواه النسائيّ وابن ماجة وأحمد والـدارميّ عن أنس مرفوعاً ، وصـحّحه الحـاكم ، وقـال : إنّه روي من ثلاثة أوجه عن أنس وهـذا أمثلها . انظر كشف الخفـاء ومزيل الإلبـاس 1/293/ .

الذي تستحقّ عليه كلّ شكر وتقــدير ، وإنّ للقـائمين عليها من الله تعـالى من المثوبة والأجر ما لا يدخل تحت تصوّر أو حصرَ ..

وبعد ؛ **فــإِنَّ هدايــةَ الْقُـرْآنِ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** تفرض على كلّ مؤمن ومؤمنة أن يجعــلَ أولاده قريــبين من هَــذه الهدَاية الإلهيّة يحظــون ببركاتها وخيراتها ، وتفيض عليهم أنوارها وأسرارها ..

نســـأل الله تعـــالى أن يوفِّق الآبـــاء والأمّهات والمربّين إلى أن يولوا كتاب الله تعــالى ما يليق به من العناية والاهتمــام ، ليتحقّق انبعاث هـذه الأمّة من جديـد ، وأن يجعل أبناءنا وبناتنا ببركة القــــرآن العظيم قـــرّة عين لنا في الـــدارين ، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه .

وصلّى الله على عبده ونَبيّه سيّدنا محمّد ، وعَلى آله وصحبه وسَلّم ، والحمد لله ربّ العالمين

ينظر كــلّ مــؤمن إلى حفظ القـــرآن الكريم أنّه نعمة من أعظم نعم الله تعـالى على العبد ، ويتمنّى أن يكرمه الله تعـــالى بها في أبنائه وبناته ، لما فيها من الخيرات والبركـات في الـدنيا والآخـرة .. ومنذ جيل مضى كـــان النـــاس ينظـــرون إلى حفظ القـرآن الكـريم أنّه صـنعة العميـان للتلاوة في المـآتم ، وعلى المقــابر .. وقد تطـوّر هـــذا الأمر ، ونظّم ليكــــون للمقــــرئين المحـترفين طريقـاً إلى الـثراء الفـاحش ، تحجز فيه الأدوار ، وتدفع المبـالغ الطائلة ، ويقدّم من يدفع أكثر ، ويسعى الناس وراء الأصوات النديّة ، والأنغام الموزونة ..

ثمّ كان من بركات صحوة النـاس على دينهم ، أن صــحّح هـــذا المفهـــوم ، ورُدّ للقرآن العظيم اعتبـاره ، فأصـبح الاهتمـام بحفظ القــرآن الكــريم روحــاً ســارية في أبنـــاء الأمّة ، وأمنية عزيـــزة غالية ، يتطلّع إليها الكبار والصـغار ، والرجـال والنسـاء ، ويرعاه المسئولون وولاة الأمــور في كثــير من البلاد الإســـلاميّة بكـــلّ تأييد وعناية .. ولعمر الحـــقّ ذلك من أســـرار قـــول الله

تعــالى : { **إنّا نحنُ نزّلنا الــذكرَ ، وإنّا لهُ لحافِظُونَ** (9) } الحجر .

ومع ذلك الاهتمـــام والحـــرص ، ففي العالم الإسلاميّ اليـوم ظـواهر عديـدة ، لا تلتقي مع الاهتمــام الحــقّ بحفظ القــرآن الكــريم كما يريد الله تعــالى ، ولا تتناسب مع ثمراته المرجوّة :

ففي بعض البلاد الإســــــلاميّة لا يتعلّم الطــالب في المدرسة النظاميّة إلاّ بعد أن يختم القـرآن حفظـاً من أوّله إلى آخـره .. ثمّ تراه في مستقبل أيّامه إنساناً آخر : قد نسي القرآن فلم يعد يذكر منه حرفـاً ، ولا ترى شيئاً من سـلوكيّاته يلتقي مع القـرآن ومبادئه .. فقد يكــون تــارك صــلاة ، وقد يكون علمانيّـاً في مفاهيمه وأفكـاره ، وقد يكون مقترفـاً للكبـائر .. وقد يكـون .. وقد يكون ..

وكما يمرّ النــاس بمرحلة الطفولة قبل مرحلة البلـــوغ والنضج ، ففي بعض البلاد الإسلاميّة يمرّ الناس بمرحلة حفظ القرآن الكريم قبل كلّ شـيء في حيـاتهم .. ثمّ لا ترى في مجتمعهم أثـراً للقـرآن أو خـبراً : فمجتمعهم مجتمع احتراب وسفك للدماء ، والجهل والتخلّف ، والفقر والمــــــرض ،

عنـاوين بـارزة في حيـاة النـاس .. وأنـواع العلل الاجتماعيّة تنخر في بنيــان الأمّة من جميع الأطراف .. بصورة لا تجد فيها مكاناً للقرآن ، ولا لآية واحدة ..

ورأيت فيما رأيت رجلاً من التجّار كان يحفظ القـــرآن في طفولته ، ثمّ اشـــتغل بالتجــارة ، ولم يعد يصــله بــالقرآن ودينه شيء .. وهو اليوم يحارب أولاده لتمسّكهم بـــدينهم ، ومحـــافظتهم على صـــلاتهم ، وإقبالهم على طاعة ربّهم .!

ورأيت فيما رأيت أيضـــــاً رجلاً يحفظ القـــــرآن ، وهو على حـــــظّ من الثقافة الإســلاميّة غــير قليل ، ويــرأس مؤسّسة تجارية ، ولكنّ تعامله مع النـــــاس ، ومع مرءوسيه على وجه الخصوص لا يلتقي مع أخلاق القـــرآن ، وآداب القـــرآن .! يظلم النـاس ، وينتقص حقـوقهم ، ويعتـدي على أمــوالهم .. ولا يبــالي في ســبيل مصــالح دنياه الموهومة بشـيء من مبـادئ القـرآن وأحكامه ..

ورأيت بعض الشـــباب من يتبـــاهى بحفظه للقـرآن ، وهو لا يتـورّع عن عقـوق الوالـدين ، ويسـتهتر بالصـلاة ، وبعضـهم لا يبـــالي بالمحافظة على صـــلاة الجماعة ،

ومنهم من لا ترى في أخلاقه وسـلوكه ، ما يلتقي مع القرآن أو يقاربه ..

ولعلّ كثـيراً من القـرّاء يتّفق معي في الرأي حول وجود هذه الظواهر ، ويرى أنّها نشــاز في التعامل مع القــرآن الكــريم : حفظاً ، وتدبّراً ، وتأدّباً وعملاً ..

ولكنّ الســـــؤال المهمّ : هل يتناسب الاهتمام بحفظ القرآن الكريم وتجويده مع الاهتمــام بغــرس أخلاقيّــات القــرآن ، والتعامل الصادق مع مبادئه وقيمه .؟ وهل تلاحظ ذلك الجمعيّــــــــات الخيريّة ، والمؤسّســات القرآنيّة .؟ وما تفســيرها لهــذه الظــواهر .؟ وأين يكمن الخلل في عملها ، وهي تنفق جهـــوداً مضـــنية في تحفيظ القــــرآن ، وتتنــــافس فيما بينها لتخريج أكبر عدد ممكن من الحفّـاظ عامـاً بعد عام .؟!

إنّ الخلل يكمن في البعد عن منهج السلف في حفظ القرآن الكـريم ، وتلقينه وتلقّيه .. هذا المنهج الذي كان بيّناً واضـحاً منذ عهد الصـــحابة إلى عهد التـــابعين ، وإلى عهد تـابعيهم ، ثمّ تـراخى النـاس في الالـــتزام بالطريقة المثلى لحفظ القــرآن الكــــريم ، وتلقينه وتلقّيه .. وغلب النظر

إلى الكمّ والمظهر على حســــاب النوعيّة والكيف ، ووقع ما حـــذّر منه المصـــطفى أمّته من أقــوام يتلــون القــرآن لا يجــاوز حناجرهم ..

وقد حَدّثَنا الإمامُ عبدُ اللـهِ بنُ حـبيبٍ ، أبو عبدِ الـرحمنِ السُّـلَمِيّ رحمـهُ اللـهُ عن طريقة السـلف في تلقّي القـرآن الكـريم وتلقينه فقَــالَ : " **حــدّثَنا الــذينَ كَـانُوا يُقرِئُونَنا القُرآنَ ، كعُثمانَ بنِ عَفّـانَ ، وعبدِ اللهِ بنِ مَسـعُودٍ ، وغيرِهما ، أنّهُم كَـانُوا إذا تَعلّمُـوا مِنَ النـبيِّ عَشـــــرَ آيـــــاتٍ لم يُجاوِزُوهَا حتّى يَتعلّمُوا ما فِيها مِنَ العِلمِ والعَمَـلِ ، قَـــالُوا : فتَعلّمْنا القُـــرآنَ والعِلمَ والعَمَلَ جميعاً** " [1] .

إنّه منهج دقيق متـوازن يجمع بين قـوّة التلقّي وقـــوّة العمل ، وجدّيّة الأخذ وجدّيّة التفاعل ، ولا يغفل واحـــــــداً منها على حساب الآخر .!

وإنّ التنـافس الـذي نلحظه اليـوم في تخريج الحفّاظ فحسب ، لا يعـدو أن يكـون

1(?) ـ رواه الإمام عبد الرزّاق في مسـنده عن معمر عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الـرحمن السـلمي رحمه الله تعالى .

عملاً يتشـابه مع استنسـاخ أجهـزة مسـجّلة صـــمّاء ، تقـــرأ القـــرآن ولا تعي معانيه ، وترتّله ولا تتـــدبّره ، وتقف عند حروفه ولا تفقه حدوده ، وربّما استجرّتها مغانم الدنيا إلى اتّخاذ القـرآن حرفة وتكسّـباً ، فيطالها عندئذ الوعيد الإلهيّ المخيف : { **أفلا يَتــدبّرُونَ القُــرآنَ أم علَى قُلُــوبٍ أقفَالُها** } .!؟

فهل هذه رسالة القرآن الكــريم في الحيـــاة .؟ وهل بهـــذا المنهج يرتجى للأمّة أن تبلغ عزّاً ، أو تنهض من كبوة .؟!

إنّ النهضة القرآنيّة الحقّة هي الـــــتي يتــواكب فيها الاهتمــام بالحفظ والتجويد ، مع الاهتمــام بالتــدبّر والعمل ، والحــرص على تحويل هـــدي القـــرآن إلى ســـيرة تصطبغ بها حياة الإنسان وسيرته .

وإنّنا مـــــدعوون لتحقيق ذلك إلى أن نعيد النظر في طريقة تعاملنا مع القــرآن الكريم ، وأسلوب توريثه للجيل من بعدنا ، وليس من شـأن أولي العـزم من الرجـال أن يتهرّبــوا من تبعـات التكـاليف ، وجلائل الأعمال ، ويركنوا إلى ما هو أسهل وأخـفّ على قلـوبهم ، وأحظى لنفوسـهم ، وأظهر

لهم بين النـــــاس ، ولو لم يكن من ورائه كبيرِ فائدة أو جدوى .!

وبعد ؛ فإنّنا نتمنّى على الله تعالى أن يأتي يـوم نـرى فيه أخلاق القـرآن الكـريم وقيمه ، تهيمن على أهل القـــرآن ، وتحكم حياتهم وسلوكهم ، وتنظر فيه الأجيـال إلى هذه الظواهر السلبيّة التي تعود إلى الخلل في منهج التلقّي ، كما ننظر اليـوم ونعجب إلى ما كـان عليه النـاس منذ جيل مضى ، وما ذلك على الله بعزيز .

الأدب شــعار المســلم في حياته ، مع الكبــير والصــغير والقــريب والبعيد ، لأنّ **الشــريعة الإســلاميّة كلّها آداب** : إذ هي عقيــدة وعبــادة ، وتشــريع وأخلاق ، وهي تئــول بعمومها إلى الأخلاق بمفهومها العامّ . فالعقيدة والعبـادة ، والتشـريع كلّها أنـــواع من الأدب مع الله تعـــالى ، ومع النفس ومع الآخرين .

ومن ثمّ فــإنّ الإمــام ابن القيّم رحمه الله يقول : " الأدب هو الدين كلّه " [1] .

مفهوم الأدب ومعناه العامّ والخاصّ :

جـاء في المصـباح المنـير : " قـال أبو زيد الأنصـاريّ : **" الأدب يقع على كـلّ رياضة محمودة ، يتخرّج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل "** .

وقــال بعض العلمــاء : **" الأدب كلمة تجمع خصـــال الخـــير كلّها "** . أو هو اجتماع خصال الخير في العبد " [2] .

وقــال الحافظ ابن حجر رحمه الله : **" الأدب استعمال ما يحمد قولاً وفعلاً**

1(?) ـ كما في " تهذيب مدارج السالكين " ص/445/ .
2(?) ـ المرجع السابق .

" ، وعبّر بعضــهم بأنّه الأخذ بمكــارم الأخلاق " .

وقيل : " هو تعظيم من فوقك ، والرفق بمن دونك " [1] .

ـ فضل الأدب في الدنيا والآخرة :

قـال إبـراهيم بن حـبيب بن الشـهيد ــ وهو وأبوه من الثقات الأثبـات ــ : قـال لي أبي : **" يا بـــــنيّ ! ائت الفقهــــاء والعلمــــاء ، وتعلّم منهم ، وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم ، فإنّ ذاك أحبُّ إليّ لك من كثير من الحديث "** .

وقال الإمـام ابن المبـارك رحمه الله : **" نحن إلى قليل من الأدب أحـــــوج منّا إلى كثير من العلم " .**

وروى أبو نعيم في ترجمة الإمام مالك أنّه قـال لفـتىً من قـريش : " يا ابن أخي تعلّم الأدب قبل أن تتعلّم العلم " .

وحكى صـنيع أمّه معه فقـال : " كـانت أمّي تعمّمــني ، وتقــول لي : " اذهب إلى ربيعة ، فتعلّم من أدبه قبل علمه " .

1(?) ـ الشــيخ محمّد العوّامة " أدب الاختلاف في مســائل العلم والدين " ص/61/ .

وقال الإمـام ابن المبـارك رحمه الله : " من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السـنن ، ومن تهـاون بالسـنن عـوقب بحرمـان الفـرائض ، ومن تهـاون بـالفرائض عـوقب بحرمان المعرفة " .

ومن كلام علمـاء التربية : " **ما فـاز من فاز إلاّ بـالأدب ، وما سـقط من سقط إلاّ بسوء الأدب** " [1] .

وجاء عن بعض السلف : أنّ أهل الجنّة يـدخلون الجنّة بعد فضل الله تعـالى بأعمـالهم ، ويرثـون درجاتها ومنازلها على حسب أدبهم " .

ومن مواقف السـلف في أخذ طلاّبهم بـالأدب قبل العلم : ما ذكـره البرهـان البقـاعيّ أنّه سـأله بعض الأعـاجم أن يقـرأ عليه ، فـأذن له ، فجلس متربّعـاً ، فـامتنع عن إقرائه ، وقال له : " **أنت أحوج إلى الأدب منك إلى العلم الـذي جئت تطلبه** " [2] .

1(?) ـ المرجع السابق ص/168/ .
2(?) ـ ذكر ذلك العلاّمة المنـاويّ في فيض القـدير 1/225/ نقلاً عن كتاب : " أدب الاختلاف في مسـائل العلم والـدين " للشيخ محمّد العوّامة ص/167/ .

قصّة أستاذنا الشيخ عبد الرحمن زين العابدين رحمه الله مع بعض الذين يحملون الألقاب العلميّة ، ولم يتأدّبوا بآداب العلماء ، فرفض إقراءهم للنحو .

وعندما سئلت السيّدة عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله قالت : " **كان خلقه القرآن** " ، وفي رواية زيادة : يرضى لرضاه ، ويغضب لغضبه " .

فلو نظرنا إلى الأحكام والآداب التي جاء بها الإسلام ، وحثّنا على التحلّي بها ، لرأينا أنّها جمال الحياة وزينة الإنسان ، وسرّ قبوله بين الناس ومحبّة الناس له .

ـ **فضل حفظ القرآن الكريم بشهادة بعض المعاصرين** :

ـ **فمن أهمّ آداب طالب القرآن :**

1 ـ الإخلاص لوجه الله تعالى ، وابتغاء مثوبته .

2 ـ الامتثال والعمل . { **واتّقُوا الله ويُعلّمُكُم الله** } ومن كلام عيسى ابن مريم عليه السلام : " **من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم** " .

ـ منهج السلف في تلقّي القرآن وأخذه : وقد حَدّثَنا الإمامُ عبدُ اللهِ بنُ حبيبٍ ، أبو

عبــدِ الــرحمنِ السُّــلَمِيّ رحمــهُ اللــهُ عن طريقة الســلف في تلقّي القــرآن الكــريم وتلقينه فقَــالَ : " **حــدّثَنا الــذينَ كَـانُوا يُقرِئُونَنا القُـرآنَ ،** كعُثمـانَ بنِ عَفّـانَ ، وعبـدِ اللـهِ بنِ مَسـعُودٍ ، وغيرِهما ، أنّهُم كانُوا إذا تَعلّمُـوا مِنَ النـبيِّ عَشـرَ **آيـاتٍ لم يُجاوِزُوهَا حتّى يَتعلّمُـــوا ما فِيها مِنَ العِلَمِ والعَمَلِ ، قَــالُوا : فتَعلَّمْنا القُرآنَ والعِلمَ والعَمَلَ جميعاً** " [1] .

3 ـ الوقـــوف عند حـــدود القرآن والتأدّب بآدابه . فممّا وصف به عمر بن الخطّـاب : " **أنّه كـان وقّافـاً عند كتاب الله** " .

ـ أثر التـأدّب بـآداب القـرآن في حياة الشابّ وعلاقاته :

1 ـ أن ذلك يكـون برهـان صـدقه وإخلاصه : وكثـير من النـاس يلتبس عليهم أمر الإخلاص ، وتخـدعهم نفوسـهم ، وهـذا ميزان لا يخدع .

1(?) ـ رواه الإمــام عبــدالرزّاق في مســنده عن معمر عن عطاء بن السـائب عن أبي عبد الـرحمن السـلمي رحمه الله تعالى.

2 ـ توفيق الله تعـــالى له إلى المزيد من الخير ، لأنّ ذلك نوع من الشكر : { **لئِن شكَرتم لأزِيدَنّكُم** } .

3 ـ تأثّر الناس بسـلوكه ودعوته ، واستجابتهم لنصحه وتذكيره .

وعن عبد الله بن مسـعود قـال : " **ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا النـاس نـائمون ، وبنهـاره إذا الناس مفطرون ، وبحزنه إذا الناس يفرحـون ، وببكائه إذا النـاس يضـحكون ، وبصـمته إذا النـاس يخوضـون ، وبخشـوعه إذا النـاس يختالون** " .

وعن الحسن البصري رحمه الله تعالى أنّه قـال : " **إنّ من كـان قبلكم رأوا القـرآن رسـائل من ربّهم ، فكـانوا يتـدبّرونها بالليل ، وينفّـذونها في النهار** " .

وعن الفضـيل بن عيـاض رحمه الله تعـالى قـال : " **ينبغي لحامل القـرآن ألاّ يكـون له حاجة إلى أحد ، من الخلفاء فمن دونهم** " .

وعنه أيضـاً قـال : " **حامل القـرآن حامل راية الإسـلام ، لا ينبغي له أن يلهو مع من يلهو ، ولا يســـــهو مع من يســـهو ، ولا يلغو مع من يلغو ، تعظيماً لحقّ القرآن** " .

وقال الإمام النووي رحمه الله تعـالى : " **من آداب حامل القـرآن أن يكـون على أكمل الأحــــوال ، وأكــــــرم الشمائل ، وأن يرفع نفسه عن كـلّ ما نهى القرآن عنه إجلالاً للقـرآن ، وأن يكــــون مصـــــوناً عن دنيء الاكتساب ، شريف النفس ، مرتفعاً على الجبـــابرة ، والجفـــاة من أهل الــدنيا ، متواضـعاً للصـالحين وأهل الخـــير والمســاكين ، وأن يكـــون متخشّعاً ذا سكينة ووقار** " .

فقد جــاء عن عمر بن الخطّــاب أنّه قـــال : " **يا معشر القــرّاء ! ارفعــوا رؤوســـكم فقد وضح لكم الطريق ، فاســتبقوا الخـــيرات ، ولا تكونـــوا عيالاً على الناس** " [1] .

1(?) ـ الإمـام النــووي رحمه الله " التبيــان في آداب حملة القرآن " ص/43/ .

وأختم حديثي بكلمـات جامعة لحقـائق الأدب ، وصـفات المـؤمن المتـأدّب للإمـام الحارث المحاسبيّ رحمه الله يقـول فيها : " واعلم أنّ في كلّ فكرة أدبـاً ، وفي كـلّ إشارة علماً ، وإنّما يميّز ذلك من فهم عن الله عزّ وجلّ مـراده ، وجـنى فوائد اليقين من خطابه .

وعلامة ذلك في الصـــــادق : إذا نظر اعتبر ، وإذا صـمت تفكّر ، وإذا تكلّم ذكر ، وإذا مُنِع صـــبر ، وإذا أُعطيَ شـــكر ، وإذا ابتُلي اسـترجع ، وإذا جُهِل عليه حلُم ، وإذا علِم تواضع ، وإذا علّم رفق ، وإذا سُـــــئل بذل .

شِـفاءٌ للقاصـدِ ، وعـونٌ للمسترشِـدِ ، حليفُ صدقٍ ، وكهفُ برّ ، قريبُ الرضا في حَقّ نفسِه ، بعيدُ الهمّةِ في حقّ الله تعالى ، نيّته أفضل من عمله ، وعمله أبلغ من قوله ، موطنه الحـــقّ ، ومعقله الحيـــاء ، ومعلومه الورع ، وشاهده الثقة ، له بصائر من النور يبصر بها ، وحقـائق من العلم ينطق منها ، ودلائل من اليقين يُعبّر عنها " [1] .

1(?) ـ الحارث المحاسبيّ " رسالة المسترشـدين " ص/102 ـ 103/ بتحقيق الشيخ عبد الفتّاح أبو غدّة .

وختاماً ؛ فـإنّ صـورة الأدب قد تحـدّها الكلمـات ، وتنـبئ عنها الإشـارات ، ولكنّ حقيقته لا تحيط بها العبارات ، ولا تحصرها الكلمـات ، وإنّما هو سـرّ بـاطن ، وسـلوك حميد ظاهر ، ينتظمّ كلّ شـأن ويجمّل كـلّ حال ..

وينبغي أن يعلم كلّ طـالب للقـرآن أنّ الآداب العالية لا تنبت في النفس جملة واحـــــــدة ، وإنّما هي كالغرسة الطيّبة ، يتعهّـدها الـزارع يومـاً بعد يـوم ، ويكـون شديد الحرص عليها ، والحماية لها من كلّ ما يضـرّ بها ، حتّى يقـوى سـاقها ، ويشـتدّ عودها .. ولا شــيء يبلّغ الطـالب مـراده ، ويصل به إلى غايته كصـــــدقه وإخلاصه ، يقــول الله تبــارك وتعــالى : { **والــذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنهـدِيَنّهُم سُـبُلَنا ، وإنّ الله لمَعَ المحسِنِينَ** (69) } العنكبــوت .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

إنّ اسْتجابة الله تعالى لدعاء عباده منْ دلائل وحدانيّة الله تعالى ، وقربه منْ عباده ، يقول الله سبحانه : { **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ، وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** (186) } البقرة .

ويقول سبْحانه : { **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ ؟. قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ** (62) } النمل .

وإنّ أعظَمَ تعبير نبويّ عن أهمّيّة الدعاء في دين الله ومكانته ، هو قول النبيّ ￼ : (**الدعاء مُخُّ العبادة**) [1] ، وفي حديث آخر : (**الدعاء هو العبادة**)

وحديث النبيّ ￼ مستوْحى منْ قول الله تعالى : { **وَقَالَ رَبُّكُمْ : ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ**

1(?) ـ رواه الترمذي برقم /3293/ـ ، وقال : هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلاّ من حديث ابن لهيعة .

2(?) ـ رواه أبو داود برقم /1479/ والترمذي برقم /2973/ـ ، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما ، وقال : حديث حسن صحيح ، وأخرجه ابن ماجة برقم /3827/ـ ، وابن حبّان وصحّحه ، والحاكم ووافقه الذهبيّ .

عَنْ عِبَـــادَتِي سَـــيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِــرِينَ (60) } غــافر ، إذ ربــطَ الله تعـالى بين الـدعاء والعبـادة ربطـاً وثيقـاً ، فجعل الإعراضَ عن دعاء الله تعالى تكبّراً عَن عبادَتِه ، وأنّ جزاء من يكون كـذلك أن يدخل النار ذليلاً صاغراً .

علينا أن نثـير في نفس الطفل أسـئلة متنوّعة تتّصل بالدعاء : لماذا نــدعو الله .؟ وما معنى ذلك .؟ لأنّ الله تعالى يملك كلّ شــيء ، ونحن فقــراء إلى الله في كــلّ شيء .. وإنّ من محبّة الله تَعالى لعبــاده ، ورحمته ورأفته بهمْ ، وهو الغــنيّ عنهم أن فتح لهم أبواب فضله وكَرمه بالليل والنهَار ، وكلّما ازداد عبــاده رغبَــةً إليه زادهم منْ فضله وكَرمه ..

وينبغي أن يحفّظ الطفل جوامع الدعاء ، التي كان النبي يحبّها ويَــدعُو بها ، وهي كثيرة متنوّعة ، فمنها :

{ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِي الآخِـرَةِ حَسَـنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** (201) } البقرة .

{ **رَبَّنَا اغْفِـرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَــبَقُونَا بِالإِيمَــانِ ، وَلاَ تَجْعَــلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُــــوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** (10) } الحشر .

{ **رَبَّنَا لا تُـــزِغْ قُلُوبَنَا بَعْـــدَ إِذْ هَـدَيْتَنَا ، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَـدُنْكَ رَحْمَـةً ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ** (8) } آل عمران .

{ **رَبَّنَا لا تُؤَاخِــذْنَا إِنْ نَسِـــينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلا تَحْمِـلْ عَلَيْنَا إِصْـراً كَمَا حَمَلْتَـــــهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَــةَ لَنَا بِــهِ ، وَاعْـــفُ عَنَّا ، وَاغْفِـــرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُـــرْنَا عَلَى الْقَـــوْمِ الْكَافِرِينَ** (286) } البقرة .

{ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَـــنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِـــــرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُـــــونَنَّ مِنْ الخَاسِرِينَ** (23)}الأعراف .

ربّ اغفر لي ولوالــديّ ، ربّ ارْحمهما كما ربّياني صغيراً .

اللهمّ إنّي أســـألكَ الهــــدى والتقى والعفاف والغنى .

اللهمّ إنّي أسـألكَ العفـوَ والعافيـةَ في الدين والدنيا والآخرة .

اللهمّ اغفر لي وارْحمــني ، واهــدني ، وعافني ، وارزقني .

اللهمّ إنّي أعــــوذ بك من منكـــــرات الأخْلاق والأعمال والأهواء .

اللهمّ ألهمــني رشــدي ، وأعــذني من شرّ نفسي .

يا مقلّبَ القلوب ثبّت قلـبي على دينك .

وينبغي على الوالـدين أن يـرى الطفل فيهم القدوةَ العمليّة ، في دعاء الله تَعالى في كـــلّ منَاســـبة .. وعليهم أنْ يعلّمـــوا الطفل من الدعاء ما يناسب سنّه .

فـــارفع أخي الوالد المـــربّي صـــوتَك بالدعاء أمامَ طفلك : على مائدة الطعَـام ، وعند دخول المسجد ، وعند الخــروج منه ، وفي ركوب السيّارة ، وعلّمه دعـاء دخـول الحمّام ، والخروج منه .

ـ ومنْ أهمّ ما يتّصل بالـدعاء : التربية على اللجـــوء إلى الله بالـــدعاءِ قبل الأخذ بالأســـباب المادّيّة ، فالـــدعاء منْ أقـــوَى الأسْباب وأهمّها .

وينبغي أنْ يُعلّمَ الطفل التـأدّبَ بـآدَاب الدعاء وهي كثيرة ، ومن أهمّها :

1 ـ التحقّق بالـــــذلّ والعبوديّة ، والافتقار إلى الله تَعالى .

2 ـ البـدء بالحمد لله تعـالى ، والثنـاء عليه ســبحانه بما هو أهله ، والصــلاة عَلى النبيّ ، والختم بذلك .

3 ـ التمـاس أوْقـات الإجابة وأماكنها ، وهي كثيرة ..

4 ـ التسـليمُ لله بعـدَ الـدعاء ، وعـدم استعجال الإجابة .

5 ـ أن لا يعْتدي في الدعاء ، ولا يـدعوَ بـإثمٍ أو قطيعة رحم ، ولا يـدعو على أحـدٍ بعَينه .

وينبغي أن يحدّث الطفـلُ بما جـاء في الســنّة النبويّة من قصص اســتجابة الله تعالى لعباده ، وإكرامهم بكشف غمّـاتهم ، وتفريج كرباتهم ، ونصْرهم على أعـدائهم ، وما جــرى لنبيّنَا ، ولأصــحَابه الكــرام ، وللأمم السابقة من ذلك ..

وينبغي أن يُعلّمَ الطفلُ أنّ منْ بركات الــدعاء رفع البلاء ، ودفعه عن المــؤمن ، وأنّ ذلك نــوع من اســتجابة الله تعــالى لدعاء العبد ..

وأن يُعلّمَ أنّ منْ شروط استجابة الله للــدعَاء أن يتحــرّى المــؤمن الحلالَ في كسْــبه ومأكله ومشــربه ، فلا يكسب ولا يأكل ولا يشرب إلاّ حلالاً ..

وينبغي أن يُعطى الطفـــلُ ما يناسب سنّه من كتب الأدعية والأذْكار ، ليعود إليها عند الحاجة ، ويحفظ منها ..

هذا عيدنا .!

بعد رمضـان من كـلّ عـام ، يهـلّ هلال العيد ، يحمل للصـائمين العابـدين المتّقين بســـمة الأنس والرضا ، وتهنئة القبـــول والندى ، ورسالة الخير والهدى ، كما حمل هلال رمضـــان رســـالة التربية والتغيـــير ، وترقية الإيمان والتجديد ، فشـحذت الهمم والعـــزائم ، وفعلت فعلها في القلـــوب والضـــمائر ، وأحيت الأرواح ، وطهّـــرت السرائر ..

إنّ العيد مباركة ســـماويّة علويّة لمن ســـــمت أرواحهم حتّى نافست الملائكة الأطهـار في سـموّها وشـفافيّتها ، وتكرمة إلهيّة عاجلة ، لمن فاز في مدرسة الصـيام ، فقـــوي إيمانه ، وازداد يقينه ، وتوقّـــدت عزيمته ، وسـمت همّته ، وتحـرّرت إرادته من أسر أهوائه وشـــهواته .. إنّه انتصـــار المعـاني على المظـاهر ، والحقـائق على الصور والرسوم ..

لمّا قـــدم النـــبيّ المدينة كـــان لهم يومـان يلعبـون فيهما ، فقـال : (**إنّ الله**

قد أبدلكم يومين خيراً منهما ؛ يــوم الفطر ، ويوم الأضحى) [1] .

فأبــدل الله هــذه الأمّة بيــومي اللعب واللهو يــومي الــذكر والشــكر ، والمغفــرة والعفو . ففي الدنيا للمؤمنين ثلاثة أعيـاد : عيد يتكرّر كلّ أسبوع ، وعيـدان يأتيـان في كـلّ عـامٍ مـرّة مـرّة ، من غـير تكـرّر في السـنة ، فأمّا العيد المتكــرّر ، فهو يــوم الجمعة ، وهو عيد الأســبوع ، وهو مــترتّب على إكمال الصلوات المكتوبات ..

وأمّا العيـدان اللـذان يـأتي كـلّ واحـدٍ منهما في العام مرّة واحدة ؛ **فأحـدهما** : عيد الفطر من صوم رمضـان ، ويـأتي بعد أداء الركن الثالث من أركان الإسلام ، فإذا أدّى المسلمون ما افــترض الله عليهم من صيام شـهر رمضـان ، واسـتوجبوا من الله بمنّه وفضـله المغفــرة والعتق من النــار ، حــقّ لهم أن يفرحــوا بعيــدٍ يجتمعــون فيه على شــكر الله تعــالى وذكــره ، وتكبــيره على ما هداهم إليه ..

1(?) ـ رواه النســـائيّ /3/179 في العيـــدين ، وأحمد في المســـــند /3/103 و 178 و235 و250 والحـــــاكم في المستدرك ، وصحّحه على شـرط مسـلم ، ووافقه الـذهبيّ ، وكلّهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

والعيد الثاني : عيد النحر ، وهو أكبر العيـــدين وأفضـــلهما ، وهو مـــرتّب على إكمـال الحجّ ، الـذي هو الـركن الرابع من أركان الإسلام ومبانيه ، فإذا وقف الحجّـاج بعرفة ، ومنّ الله عليهم بمغفـرة ذنـوبهم ، وعتق رقـابهم من النـار حـقّ لهم أيضـاً ، وحقّ لأهل الأمصار معهم أن يفرحـوا بعيـدٍ يجتمعون فيه على شكر الله تعالى وذكـره ، وتكبـيره على ما هـداهم إليه ، والتقـرّب إليه بالنسك ، وهو إراقة دماء القرابين ..

وفي كلا العيـدين تتأكّد زيـارة القبـور للاعتبـــار والاتّعـــاظ ، وزيـــارة الأقَـــارب والأرحـــــام ، والتواصل بين الأصـــــحاب والجيران ..

لقد راد الله تعـــالى لأمّة الإســـلام أن تكون متميّزة في كلّ شيء .. في عقيدتها وعباداتها ، وفي تشـــــــريعاتها وأحكامها ، وفي أخلاقها وعاداتها ، وفي ترويحها عن نفسها ولهوها ..

إنّ العيد في الإسلام عبادة يتقـرّب بها المؤمنـــون إلى ربّهم ، ولكنّها عبـــادة من لـونٍ آخر ؛ إنّه عبـادة تجمع بين اسـتجمام الأرواح ، وبهجة النفوس ، ونشاط الأجساد ، وشـكر الله على عظيم نعمه ومننه .. إنّه

فـــــــــرح بفضل الله ورحمته : { **قُل : بفضل الله وبرحمته فبـــــــــذلك فليفرحـوا ، هو خـير ممّا يجمعـون** (58) } يونس .

قـال مخنف بن سـليم ، وهو معـدود من الصــحابة : " **الخــروج يــوم الفطر يعدل عمرة ، والخـروج يـوم الأضـحى حجّة** " .

وعن سعد بن أوس الأنصـاريّ قـال : قــال رســول الله : (إذا كــان يــوم عيد الفطر ، وقفت الملائكة على أبـــــــواب الطــــرق ، فنـــــادوا : اغـــــدوا يا معشر المسلمين ! إلى ربّ كريم ، يمنّ بــالخير ، ثمّ يــثيب عليه الجزيل ؛ لقد أمــرتم بقيــام الليل فقمتم ، وأمرتم بصيام النهار فصمتم ، وأطعتم ربّكم ، فاقبضوا جـوائزكم ، فـإذا صلّوا نادى منــادٍ : إلا إنّ ربّكم قد غفر لكم ، فارجعوا راشدين إلى رحالكم ، فهو يــوم الجائزةِ ، ويسمّى ذلك اليوم في الســماء : يوم الجائزة) [1] .

1(?) ـ رواه الطــــبرانيّ في الكبــــير ، كما في الــــترغيب والترهيب 2/153/ .

فهذه أعياد المسلمين في الــدنيا وكلّها عند إكمــال طاعة الله تعــالى ، ونيلهم لما وعدهم الله تعالى من الفضل والمثوبة ..

ومن ثمّ فإنّ المؤمن حين يفــرح بالعيد لا تســتبدّ به الفرحة ، فينسى التنقيب عن أولئك البائسين المحــرومين .. إنّه لا ينسى اليتيم المحروم من عطف الأبــوّة الحانية ، ولا ينسى البائس الفقير ، وقد حــرم سـعة العيش ورغـــده ، ولا ينسى الأرملة الـــتي حرمت من زوجها ، وتوالت عليها الشــدائد والمحن ، ولا ينسى المـــريض الـــذي فقد العافية بعدما كــان يرفل في بحبوحة ثيابها ، فأصــبح حبيســاً في ســريره ، يتلــوّى من مرضه ..

ولا ينسى قبل ذلك كلّه وبعــــده أولئك المضــــــــــطهدين في دينهم من إخوانه المســلمين في مشــارق الأرض ومغاربها ، الــذين لا جريــرة لهم إلاّ أن يقولــوا : ربّنا الله ..

إنّ العيد في الإسلام غبطة النفس في الــدين والطاعة ، وبهجة الــروح في الــدنيا والحياة ، ومظهر القوّة والإخاء ، إنّه فرحة بانتصــــار الإرادة الخيّـــرة على الأهــــواء والشــــهوات ، وبــــالخلاص والتحــــرّر من

إغواءات شياطين الإنس والجنّ وأحـابيلهم ، وهو الرضا المستلذّ بطاعة المولى تبارك وتعـالى ، والرجـاء الواجف بوعـده الكـريم بمغفرة الذنوب ، والعتق من النار ..

وإنّ من أراد معرفة أخلاق الأمّة أيّة أمّة .. فلينظر إليها في أفراحها وأعيادها ، إذ تنطلق فيها على فطرتها وسـجيّتها ، وتكشف عاداتها عن دخائلها وطبيعة تربيتها ، والأمّة الجـادّة ذات الرسـالة هي التي تكـون في فرحتها سـامية في أخلاقها إلى أرفع ذروة ، وتكـون في بهجتها متحقّقة بالإخـاء إلى أبعد مـدى ، فيتجلّى في العيد من توادّها ، وتعاطفها ، وتراحمها ، وصـفاء علائقها ما يضـفي على العيد من المعاني ما يجلّ عن الوقـوف عند المبـاهج الظـاهرة ، والاهتمـام بالزينة الفـاخرة .. وإنّ الأمّة الـتي تنسى في غمـرة أفراحها هـؤلاء وأمثـالهم ، لا يصـدق عليها أنّها أمّة حيّة فتيّة ، يحـقّ لها أن تتبـاهى بكيانها بين الأمم ، ولا يكتب لها أن تسـبق في أيّ مضمار ..

أيّها المؤمنون الصـائمون المتّقـون الموفّقـون ! هـذا عيـدنا ، وهـذه بعض معانيه ، فهل رأيتم في الدنيا عيداً كعيدنا .؟!

أطفالنا والعيد .؟

ما أحوجنا نحن المســــلمين أن نفهم أعيادنا فهمــاً صــحيحاً ، يتجــاوز الصــورة الشـكليّة المألوفة ، إلى الحقيقة الشـرعيّة المرادة من العيد ، فالعيد هو المعنى الذي يكـون في اليـوم ، لا اليـوم نفسه بما فيه من صباحٍ ومساء .. وكما يفهم الناس هـذا المعنى يتلقّون هذا اليوم ..

والعيد في أهمّ معانيه إشـعار الأمّة أنّ فيها قوّة تغيير الأيّام ، وملئها بمعانٍ جديدة ، لا إشعارها أنّ الأيّـام تتغيّر وتتبـدّل ، وهو يــوم تَعــرضُ فيه الأمّة جمــال نظامها الاجتمـاعيّ ، فيكـون يـوم الشـعور الواحد في نفـوس الجميع ، والـروح الواحـدة في حياة الجميع ، والكلمة الواحدة على ألسنة الجميع : الشعور بالقدرة على تغيير الأيّـام ، لا القـدرة على تغيـير الثيـاب ، والـروح التي تقارب بين القلـوب ، وتمحو الفـروق بين أبناء المجتمع ، لا المظاهر التي تكسر قلوب الضعفاء ، وتصرخ في وجوههم أكثر من أيّ يـومٍ في حيـاتهم ، والكلمة الطيّبة الـتي هي شـعار الأمّة في جميع علاقاتها ..

بـدءاً من ذكر اسم الله على كـلّ شـيء ، وإلقاء السلام على كلّ مسلم ..

إنّ العيد يـــوم شـــعور كـــريم بالرضا والقبـــــــول ، يغمر الله به الأمّة بعد أن أكرمها بطاعته ، ومنّ عليها بـــالتوفيق إلى أداء الواجب كما أمرها ..

وهو يـــوم بهجة القلـــوب والأرواح .. يتجلّى فيه تقـارب قلـوب الأمّة ، ووحـــدة مشاعرها ، وصفاء علاقاتها ..

والعيد يعلّمنا شـكر المحسن ومكافأته عقب ما يقـوم به من عمل ، أو يـؤدّي من واجب ..

وفيه تعليم للأمّة وتربية أن تتّسع روح الجــوار وتمتــدّ ، حتّى يرجع البلد العظيمُ ، وكأنّه لأهله دار واحدة ، يتحقّق فيها الإخـاء بمعنـــاه العمليّ ، وتظهر فضـــيلة الإخلاص مسـتعلنة للجميع ، ويهـدي النـاس بعضـهم بعضـــاً هــدايا القلـــوب المخلصة المحبّة ، الـتي لا يحـول بينها وبين اتّصـالها ببعضـها شيء من أمر هذه الدنيا ..

وليس العيد لمن لبس الجديد ، إنّما العيد لمن خـاف يـوم الوعيد ، وكـان ممّن طاعاته تزيد ..

ليس العيد لمن تجمّل بالثيـــــــــــاب والركـــــوب ، إنّما العيد لمن غفـــــرت له الذنوب ..

ليس العيد لمن قتل أيّامه بـــالغفلات ، إنّما العيد لمن استعدّ لما هو آت ..

ولقد عرف سلف هذه الأمّة العيد بهذه المعاني .. فغرسوها في أطفالهم ، فكانت الأمّة أمّة الحقـائق والمعـاني السـامية ، لا أمّة المظاهر العابثة والحياة اللاهية ..

رأى عمر بن عبد العزيز أحد أولاده ليلة العيد عليه ثيــاب خلقة ـــ أي بالية ـــ فدمعت عينه ، فانتبه الغلام لوالده ، فقـال له : ما يبكيك يا أبتِ .؟ فقـــــال له : رأيت عليك ثياباً خلقة ، وغداً عيد ، فخشـيت أن تـرى الأطفـال في ثيـابٍ جديـدة ، فينكَسر قلبك .. فقـــــال : " **ياً أبتِ إنّما ينكسر قلبك من أعدمه الله رضاه ، أو عــقّ أمّه أو أبــاه ، وإنّي لأرجو أن يكــون الله راضـياً عــني برضـاكما عــني** .. فبكى والـــده فرحـــاً بجوابه ، واحتضـــنه ، وقبّل ما بين عينيه ، ودعا له بخـير ، فكـان من أزهد أولاده من بعده ..

دخل بعض أصــحاب عليّ عليه يـــوم عيد الفطر ، فـــرأوه يأكل خـــبز شـــعير ،

فقـالوا له : يا أمـير المؤمـنين خـبز شـعير يوم عيد .؟! فقال لهم :

" اليـــوم عيد من قبل بـــالأمس صيامه وقيامه ، اليوم عيد من قبلت بالأمس طاعاته ، اليـوم عيد ، وغـداً عيد ، وكــلّ يــومٍ لا نعصي الله فيه فهو لنا عيد .. " .

واليــوم يســتطيع الوالــدان والمربّــون بحكمتهم أنْ يغرســــوا في نفس الطفل هـــذه المعـــاني الإيمانيّة الكريمة ، وما يشــبهها ، كما يســتطيعون تدريبه بطريقة عمليّة على تنفيـذها بنفسه ، والالـتزام بها .. ولابدّ للوالدين والمـربّين من اتّبـاع خطّة عمليّة مدروسة بعناية لغرس هذه المعاني الإيمانيّة وما يشبهها ، وتعهّـدها في نفـوس الأطفــال ورعايتها ، ليكــون العيد ترويحــاً للقلوب والنفوس أشبه بالجـدّ ، وجـدّاً في الحيــاة يزينه الــترويح العــذب ، والســموّ الرحب ..

ـ ما ضـرّك أيّها الوالد الكـريم ، وأنت تشــتري لعبة العيد لطفلك أن تشــتري له لعباً إضافيّة : اثنـتين أو ثلاثـاً ، ليهـديها إلى من يختار من أطفال أقاربه أو جيرانه ..

ـ ما ضــرّك أيّها الوالد الكــريم ، أن تصحب طفلك لعيادة أطفال المسلمين المرضى في المستشــفى ، وليكن معهم شــيء من الحلــوى أو الشــوكولاتة ، أو الهدايا المعبّرة ، يقدّمها طفلك بيده لأولئك المرضى ، ويتـــذكّر ما هو فيه من نعمة العافية ..

ـ عــوّد طفلك الأكــبر أن يقــدّم هديّة لأخيه الأصغر منه يـوم العيد ، واحـرص أن يختارها بنفسه ، ويدفع ثمنها للبائع بيده ..

ـ ذكّر أطفالك أيّها الوالد المــربّي ! أنّ لهم أمثــالاً من أطفــال المســلمين ، في شــتّى بقــاع الأرض ، لا يعرفــون للعيد أيّ معنى ، ويعيشون حياة البؤس والحرمـان ، والقهر والإذلال ..

تغرّب الشيخ علي الطنطاويّ مرّة عن أسـرته ، وأدركه عيد الفطر لأوّل مـرّة في حياته ، وهو بعيد عن زوجته وأطفاله .. فأحسّ أنّ العيد يوماً للحزن والكآبة بعدما عرفه سنين عديدة يومـاً للبهجة والسـرور .. فقرّر أن يلـزم بيته ويستسـلم لأحزانه ، ويعيش مع ذكريـــات ســـالف أيّامه .. فتضـاعف الحـزن عليه ، وتوافـدت الكآبة من كــلّ الأطــراف إليه .. فلم يــرتضِ له

إيمانه أن يستسـلم لهـذه الحـال .. فخـرج من بيته إلى بعض الحـــــدائق العامّة حيث تكـــــون الأسر مع أطفالها تبتهج بالعيد كما ألفت واعتـــــادت .. فـــــرأى الفرحة تعمّ الوجوه ، والبسـمة ترتسم على الشـفاه .. فتـــــــذكّر زوجته وأطفاله وهو بعيد عنهم ألوف الأميال ، فترقرقت الدمعة في عينيه ، واجتاحته موجة من الشـوق والحـزن لم يعرف لها طعماً من قبل .. فغرق في لجّة من أحزانه وأحْلامه .. وفجـــــأة .. وقعت عيناه ثلاثة أطفـال مع أمّهم ليسـوا كسـائر الأطفـــال ، ترنو أعينهم إلى الأطفـــال من حـــولهم ، وليس في أيـــديهم شـــيء من الحلـوى الـتي يأكلونها ، أو الألعـاب الـتي يبتهجون بها .. فما أشبه هؤلاء الأطفال مع أمّهم بأطفاله الثلاثة مع زوجته الصـــــابرة المرابطة .. فتَوجّه بغـــير شـــعور منه إلى أمّهم ، وقدّم لها مبلغاً من المـال كفـاء ما يقدّمه لأطفاله في مثل هذا اليـوم ، وقـال لها : هل تقبلين يا سيّدتي هذا المـال هديّة من أطفالي لهؤلاء الأطفال ! لتشتري لهم ما شـئت من الحلـوى والألعـاب كسـائر هـــؤلاء الأطفـــال .؟! فأخذته باســتحياء ، وأخذت تشـكره بكلمـات ، لا يعـرف شـيئاً

من معناها .. وغـابت عنه قليلاً مع أطفالها ، ثمّ عـادت والفرحة تملأ وجـوههم ، وتهـزّ أعطافهم ، في أيــديهم بعض اللعب ، وفي أفــواههم تتحــرّك الحلــوى ، ويســيل بها لعابهم ، وقد طـال عهـدهم بها .. فـدمعت عينــاه مــرّة أخــرى .. ولكنّها دمعة البهجة والغبطة .. وهو يـــــرى أولئك الأطفـــــال البائسين يفرحون بالعيد كما يفرح إخوانهم ، فيعوّضــــونه ما افتقد من قــــرب زوجته وأطفاله ..

إنّ الطفولة العذبة البريئة تضـفي على العيد مســحة من الجمــال لا يعرفها العيد بدونها .. ولكنّها أصبحت هذه الأيّام كسيفة باهتة ، وهي تعيش المــــآتم تلو المــــآتم ، تروي قصصـها الأليمة الحزينة ، بمـداد من دمها الطهـور ، وهو يسـفح كـلّ حين على ثرى فلسطين الحبيبة المغتصـبة ، ويمـتزج بـــدموع اليتـــامى ، وأنّـــات المنكـــوبين والمشرّدين ، وتتردّد له أصــداء مماثلة في شـتّى بقـاع الأرض .. إنّ عيـداً بغـير بهجة الطفولة هو يوْم بلا شمس السماء ..

* لَبّيكَ اللهمّ لَبّيكَ

سـبحان من جعل في بيته الحـرام من الآيـات البيّنـات ما يزيد المؤمـنين إيمانـاً ، ويملؤهم حبّاً وقربـاً ، وشـوقاً لزيَـارة بيته العتيق وحنيناً .. فلا تزال الأفئدة تهوي إليه وتهواه ، ولا يزال بيته العتيق عامراً بزوّاره وذكر الله ، ولا تـزال أمّة الإيمـان والتوحيد بخير وقـوّة ما كـان الـبيت قيامـاً للنـاس ، ومَثابة لهم وأمناً ..

ولقد روي أنّ إبـــــراهيم الخليل عليه الصـلاة والسـلام عنـدما أتمّ بنـاء الـبيت العـتيق أمـره الله تعـالى أن يَـدعوَ النـاسَ إلى حجّه ، فقـــال له : يا ربّ وما يبلغهم صوتي أوْ ندائي .؟ فقال له الله تعـالى : " عليك الـــدعاء ، وعلينا البلاغ " ، فقـــام إبـراهيم عليه الصـلاة والسـلام قريبـاً من الـبيت ، ونـادى بـأعلى صـوته : " يا أيّها النـاس ! إنّ الله تعـالى بـنى لكم بيْتـاً فحجّـوه " ، فلَبّى النـاس نـداءه بـإذن الله تعالى ، وهم في أرحـام الأمّهَـات وأصـلاب الآباء ، فمن لبّى مرّة حجّ مـرّة ، ومن لبّى أكثر حجّ على عدد ما لبّى .. وذلك ما يشير إليه قـــول الله تعــالى : { **وَأَذِّنْ فِي**

النَّاسِ بِـالحَجِّ يَـأْتُوكَ رِجَـالاً ، وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيــقٍ (27) } الحجّ .

وتـوارث النـاس هـذه التلبية والنـداء ، وإعلان التوحيد الخـالص من كـلّ شـائبة ، منذ عهد نــبيِّ الله تعـالى إبــراهيم الخليل عليه الصـلاة والسـلام ، إلى ما شـاء الله ، ثمّ حرّفت التلبية ، وعبث الشيطان بعقول أهل الجاهليّة ، فأدخل عليها الوَثــــــنيّون كلمات الكفر ، وخلطوا التوحيد بالشــرك ، ممّا جعلها متهافتة متناقضة ، ثمّ ردّها النبيّ المصـطفى إلى ما كـانت عليه من مبدأ الحقّ وجلاله ، وصفاء التوحيد ونوره ، فكــانت بهـــذه الجمل العذبة الجميلة : " **لَبّيكَ اللهمّ لَبّيكَ ، لَبّيكَ لا شَريكَ لَكَ لَبّيكَ ، إنّ الحمدَ والنعمةَ لَكَ والمُلك ، لا شَريكَ لَكَ** " ، شعاراً للإيمــان ويقينه ، وتعبيراً عن منهج الحقّ ومضمونه ..

وأصبحت هذه الكلماتُ الإيمانيّةُ العذبةُ شــعارَ الحجّـاجِ والمعتمــرين ، وعهـداً لله يعلنونه عند بيته العــتيق ، مِن لــدن ســيّد الأنبياء والمرسَلين إلى يومنا هذا ، وإلى ما يشاء الله تعالى ..

ولقد ثبت أنّ المصـطفى لـزم هـذه الصــيغةَ من التلبية في حجّة الــوداع ولم يخرج عنها ، بينما أثر عن بعض الصـحابة صــيغ أخـــرى من التلبية ، مشـــابهة لها ، وزيادة عليها ، فأقرّهم النـبيّ عليها ، ولم ينكرها عليهم ..

وفي التلبية تتكـــــرّر كلمة : " **لبّيك** " أربع مرّات ، أفهذا تكـرار جـاء للتوكيد ، أم أنّه مقصـود مَحسـوب ، وله في كـلّ مـرّة معــنى جديد .؟ وما حقيقة هــذه التلبية .؟ وماذا يحمل هذا التكـرار منْ معـانٍ ، تحت هذا النشيد الإيمانيّ العذب .؟!

وبــالرجوع إلى المعــاني اللغويّة الــتي يشملها فعل " **لبّى** " نجد أنّه يحمل جملة من المعــاني الجميلة ، يشــير إليها ، ويعبّر عنها ، وكلّها متّصلة متقاربة :

1 ـ فهو منْ لبّ بالمكــان وألبّ أي : أقــــام به ، وألبّ على كــــذا إذا لزمه ولم يفارقه ، فـإذا دعا الرجل صـاحبه أجابه : " لبّيك " أي أنا مقيم عنــدك ، ثمّ وكّد ذلك : " بلبّيك " أي إقامة بعد إقامة ، ولم تســتعمل " **لبّيك** " إلاّ بمعــنى التكــرار ، لأنّها في الأصل مثنّى أضــــيف إلى كــــاف الخطـاب : أي إجابـةً لك يا ربّ بعد إجابة ،

وإقامـــةً على أمـــرك ، ومَا يرضـــيك بلا مفارقة .

2 ـ وهو بمعـنى الاتّجـاه والقصد ، من قــــولهم : داري تلبّ دارك ، أي تواجهها ، والمعــنى على ذَلك في التلبية واضح ، أي أنا مواجهك بما تحبّ ، إجابة لك ورغبة ، فهو يعبّر عن وحدة التوجّه وصدقه وقربه .

3 ـ وهو بمعـنى إخلاصي لك يا ربّ .! من قــولهم : حَسَــبٌ لُبَــابٌ ، أي خــالصٌ محْض ، ومنه اللبّ من كـــلّ شـــيء وهو خالصه وما ينتقى منه ، ولـــذلك ســـمّي العقْل لبّاً ، ورجل لبيب أي عاقل ، وخالص كلّ شيء لبابه .

4 ـ وهو بمعـنى محبّـتي لك يا ربّ .! وشـوقي وودّي ، من قـولهم : امـرأة لَبّة ، إذا كـــانت محبّة لولـــدها ، عاطفة عليه ودودة ، ومحبّة لزوجها ثابتة على ودّه أبــداً .

وقــال بعض العــرب : " **لَبَّي يــديك** " بمعـنى أطيعك ، وأتصـرّف بإرادتك ، وأكـون كالشيء الذي تصرّفه بيديك كيف شئت ..

فلبّيـــكَ اللهمّ ! لبّيك ! توحيـــداً خالصاً من كلّ شائبة من شـوائب الشـرك ما علمنا منها ، وما لم نعلم ..

ولبّيـــكَ اللهمّ ! طاعة واســـتجابة ، وعبوديّة تامّة ، خالصة من نزغات الهـوى ، وشوائب العصيان .!

ولبّيـــكَ اللهمّ ! بكياننا كلّه : ذكـــراً وشكراً ، وحبّاً وشَوقاً ، ورغباً ورهباً ..

ولبّيـــكَ اللهمّ ! عهـــداً وولاءً .! وتوبة وإنابة ، ألاّ نحيـدَ عن طاعتك .. وألاّ نخـرج عن إجابة دعوتك ، والاستجابة لدينك ..

ولبّيكَ اللهمّ ! لا حـول لنا إلاّ بحولك ، ولا قـوّة لنا على طاعتك إلاّ بك .! تبـارك اسمك ، وتعالى جدّك ، ولا إله غيرك .

* حقائق تربويّة في مشاعر الحجّ ومناسكه

إنّ لكــلّ ركن من أركــان الإســلام من الحقائق والأبعاد ما يجعل المؤمن المتــدبّر ، البـــاحثَ المتفكّــرَ يقف أمـــام عظمة الإســـــلام مشـــــدوهاً ، لا ينقضي عجبه وانبهاره بهذا الدين العظيم ، حتّى يبـدأ من جديد .. ثمّ لا يكاد يبدأ انبهاره مـرّة أخــرى حتّى يتعاظم من جديد ويتنامى ، ويتبدّى له منها جديد بعد جديد ، وكأنّه لم يعرف هـذه الحقائق من قبل ، ولم يألفها ..

وكـان حَسـبُ الإنسـان إذا أراد صـلاح حياته وسعادته ، ورشْـدَه وهدايته أنْ يكلّف بركن واحدٍ من هذه الأركــان ، وهي تحمل له هـــذا الخـــير كلّه ، فكيف وقد منّ الله تعالى عليْه بهذه الأركان كلّها ، وأكرمه بما فيها من نفحات وأنـوار ، وبركـات وأسـرار .؟! ثمّ العجب الذي لا ينقضي من حاله أنْ يلهث وراء الســـعادة في غـــير دين الله واتّباع منهجه ..

وإنّ كلّ عبادة من العبادات لهي أشــبه بمائدةٍ منْ موائد الكـرَم الإلهيّ ، قد مـدّها الله تعـالى لعبـاده ، ودعـاهم إليها ، فكــلٌّ ينـــال منها على قـــدر صـــدقه وإخلاصه ،

وعزيمته واجتهـاده ، وعطـاء الله تعـالى لا ينفد ولا يغيض : { **كلاًّ نمـــدّ هـــؤلاء وهــؤلاء من عطــاء ربّك ، وما كــان عطاء ربّكَ محظوراً** (20) } الإسراء .

فلنقف عند بعض هـــذه الحقـــائق والمعــاني ، الــتي يريد الله لنا أن نــتربّى عليها ، وتنغرس في كياننا الـذاتيّ ، وحياتنا الاجتماعيّة وعلاقاتنا ، ونحن نقرّر سلفاً أنّنا لا نملك إلاّ فكر المخــلّ ، وجهد المقــلّ ، ولكنّ القليل من رشــفات الحــقّ يحــيي مــوات القلــوب ، ويــردّ غلّة المســغوب ، ولعــــلّ ما غفلت عنْه قد يكـــون أهمّ ممّا التفت إليه وذكـرت ، وفـوق كـلّ ذي علم عليم ، وســـبحانك اللهمّ لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا ، إنّك أنت العليم الحكيم .

1 ـ ففي الحجّ ما يـذكّر بـالبعث والنشور : فثيـاب النـاس البيضـاء أشـبه بأكفــان المــوتى ، وخـــروج النـــاس إلى عرفات أشبه بــورودهم إلى أرض المحشر ، واشـتغال كـلّ امـرئ بنفسه يـذكّر بحـال النـاس في ذلك اليـوم الـرهيب : { **يَـوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ** (34) **وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ** (35) **وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ** (36) **لِكُلِّ امْرِئٍ**

مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيــهِ (37) } عبس .

2 ـ وفي الحجّ : آيــات بيّنَــات ، ودروس نافعات ، وعظـات بالغـات ، تصل الحاضر بالماضي ، وتربط المـــؤمن بقافلة الإيمان الضاربة جذورَها في أعمـاق التــاريخ الإنســانيّ ، فتجعل الماضي البعيد حاضراً مشهوداً ، ممّا يزيد المـؤمن إيمانـاً ، ويملأ التقيّ خشية وشهوداً .

3 ـ وفي الحجّ : تتجلّى المساواة الإنسانيّة ، وهي في مبادئ الإسلام حقيقة من أجلى حقائقه ، لا تقبل الجدل أو المماراة : ولا تـزال البشـريّة تتطلّع إلى هـذا الأفق السـامي الـذي بلغته أمّة الإسـلام بمبـادئ دينها ، فلا تقـدر عليه ولا تســـــتطيعه ، ولا تقاربه ولا تدانيه ، وهيهـــات لها ذلك ! لأنّها تريـــده بمنَـــاهج مبتوتة عن هداية الله ، أو أنّها تريـــــــده ممزوجاً بأهوائها ونزواتها كشـأنها في كـلّ ما تسعى وتريد ..

4 ـ وفي الحجّ : تربية للمــؤمن على التأسّـــي بـــالنبيّ في أقواله وأفعاله وأحواله ، والحــــرص على دقّة الاتّبــاع ، يقـول الله تعـالى : { لقد

كـان لكم في رسـول الله أسـوة حسـنة ، لمن كـان يرجو الله واليـوم الآخر ، وذكر الله كثـيراً (21) } الأحـزاب ، وعنـدما حجّ النبيّ قال لأصـحابه وأمّته كلّها : (**خذوا عنّي مناسـككم**) [1] ، ولقد أصـبح كـلّ مـؤمن يخشى الله تعـالى ويتّقيه يحـرص على أن يترسّم هـدي نبيّه في كـلّ شـأن من شـئون حجّه ومناسـكه ، وذلك ما ينعكس على حياته كلّها بـالخير والتوفيق والسداد .

5 ـ وفي الحجّ : يتجلّى وضـوح الهدف في الحياة ، وهذا ما نلاحظه في التوجيه القرآنيّ في آيات الحجّ ، إذ يقـول الله تعـالى : { **فَـإِذَا قَضَـيْتُمْ مَنَاسِـكَكُمْ فَـاذْكُرُوا اللـهَ كَـذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِـرَةِ مِنْ خَلاقٍ** (200)ـ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُـولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الـدُّنْيَا حَسَـنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَـذَابَ النَّارِ** (201)ـ **أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ** (202) } البقرة .

1(?) ـ جزء من حديث رواه البخاري في كتاب الحجّ .

ويقول سبحانه : { **قُلْ : إِنَّ صَـلاتِي وَنُسُـكِي وَمَحْيَـاي وَمَمَـاتِي للـهِ رَبِّ الْعَالَمِين** (162)ـ **لا شَرِيكَ لَـهُ وَبِـذَلِكَ أُمِرْتُ وَأنَا أَوَّلُ المُسْـلِمِينَ** (163)ـ } الأنعام .

وما أكـثر الـذين يخسـرون آخِـرتَهم ، لأنّهم عاشوا هـذه الحيـاة ، ولا وضـوح لهم في شيءٍ مِن أهدافها ومقاصدها ، فعاشوا لا يعرفـــــون إلاّ اللهو واللعب ، وانقضت أعمــارهم على ذلك ، وتنــاولهم وعيد الله تعــــالى في قوله : { **أَفَحَسِـــبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا** لا **تُرْجَعُـونَ** (115)ـ **فَتَعَالَى اللـهُ الْمَلِـكُ الحَـقُّ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ** (116) } المؤمنون .

6 ـ وفي الحجّ : تتجلّى وحـــدة الأمّة ، ووحـدة الهـدَف والغاية ، وهو ما عبّر عنه النبيّ في خطبَة حجّة الـوداع فقــال : (**يا أيّها النــاس ! إنّ ربّكم واحد ، وإنّ أباكم وَاحد** ..) .

7 ـ وفي الحجّ : دعــوة جمَاعيّة عامّة إلى دين الله تعــالى ، فمظهر الأمّة وهي تـــؤدّي المناسك بهـــذه الصورَة الجماعيّة التي يسودها الودّ

والرحمة تفتقـــده الإنســـانيّة في مجتمعاتها المعاصـــرةَ وعلاقاتها ، ولم تســتطع الوصــول إليه على الــرغم ممّا ملكت من وسائل العلم والتقدّم المادّيّ .. وهــذا المظهر يحمل رســالة الإســلام إلى الإنسانيّة كلّها .. وإنّ النـاظر إلى الأمّة في حجّها يحسّ ـــ كما عبّر بعض الغـــربيّين الذين أسلموا ــ **أنّ السـعادة تشـعّ من كيانها الــــذاتيّ وداخلها** ، فلا يملك نفسه إلاّ أن يتأثّر بها ، ولكنّ المخذول من خذله الله .

8 ـ وفي الحجّ : تـؤجّج ذكريـات المكـان الحبَّ وتزيد الإيمـان ، ففي كلّ بقعة من أرض المشـاعر ذكـرى كريمة من أنبياء الله ورسله الكـرام عليهم الصـلاة والسـلام ، وبخاصّـة من أبي الأنبيـــاء إبـــراهيم الخليل ، ثمّ خـــاتمهم ســـيّدنا محمّد ، ممّا يحمل المـــؤمن على الحـــرص على التأسّـــي ، والطاعة والاتّبـاع ، وهـذه الـذكريات تثبّت قلوب المؤمنين ، وتزيدهم إيمانـاً ويقينـاً ، وتؤجّج الحبّ والشوق العارم ، لزيارة هذه البقاع الطاهرة ، وأداءّ المناسك لله .

9 ـ وفي الحجّ : تمحو بوتقة الإيمـان وحقـائقُ الإسـلام الفـوارق المصـــطنعة الكاذبة بين النــــاس ، ويتجلّى تســــــاوي النــــــاس في المسئوليّة والجزاء : (فلا فضل لعربيٍّ على أعجميّ ، ولا لأبيض على أســــود إلاّ بالتقوى) إنّها حقيقة تتجسّد واقعـاً يحسّـه النـاس ويعيشـونه ، فيـدفعهم إلى مراجعة مفــاهيمهم وســلوكهم ومــواقفهم .. وهو مبدأ التغيير في حياتهم ..

10 ـ وفي الحجّ : يتّصل بِـرّ الحجّ ببِرّ الحياة : فالحجّ أشبه بالمـادّة المكثّفة الـتي يتجمّع في كميّة قليلة منها ما يتفـرّق في كمّ هائل .. وعندما يعيش المؤمن هذه المدّة ولو كانت وجـيزة في جـوّه ورحابه ، ويصـطبغ به بمشــاعره وكيانه كلّه ، تتّصل موجات برّ الحجّ وبركاته مع تجاوب النفس واستجابة مشاعرها ببرّ الإنسان في الحياة الاجتماعيّة ، وحســنِ ســيرته ، ومن ثمّ فلا عجب أن يعود المؤمن خيراً ممّا كان عليه قبل الحجّ ، وهذا معيار الحجِّ المبرور وأهمّ مقاييسه .

11 ـ وفي الحجّ : تصطبغ الحيــاة بصبغة الاستسلام لله تعالى في كلّ

شيء : وتتجلّى في كـلّ شـأن من شـئون الحاجّ وسلوكه ؛ فالمواقيت تعلّمه أنّ لكـلّ شــيء حــدّه الشــرعيّ وميقاته ، وثيــاب الإحــرام تخرجه عن عاداته في اللبــاس ، ومحظـورات الإحـرام تضـبط سـلوكه في ليله ونهــاره ، والطــواف حــول الــبيت ، والســـعي بين الصـــفا والمـــروة يعلّمه الوقوف الصـادق ببـاب العبوديّة لله تعـالى راغباً راهباً ، خائفاً راجياً ، وهكـذا في كـلّ شعيرة ونسك ..

12 ـ وفي الحجّ : يتجلّى الأمن الذي يحقّقه الإسلام للناس ، بأروع صوره وحقائقه فحرم الله آمن ، وعبـاد الله في رحابه آمنـــون ، وحتّى الحيـــوان والنبات يشملها أمن المكان والمُحــرمين ، والمــؤمن حياته كلّها مشــتقّة من الأمن .. ممّا يطبع المؤمن على حبّ الأمن والسلام ، والحرص على تحقيقه في حياته وعلاقاته ، ويعلّمنا أنّ الأمن والســلام لا يكونــان ولا يتحقّقان إلاّ في ظلّ دين الله وشرعه .

13 ـ وفي الحجّ : يصبح وفد الله على اختلاف فئـــــاتهم ، وتنـــــوّع ثقافاتهم ، وتباعد أقطارهم ، رسلاً للـدعوة إلى دين الله تعـالى ، وحمل

رسـالة الحــقّ والهـدى إلى العـالمين : { **ومَن أحسنُ قولاً ممّن دَعَا إلى اللـهِ وعَمِـلَ صَـالحاً ، وقـالَ : إنّـني من المسلمين** (33) } فصّلت .

14 ـ وفي الحجّ : لقـاء الوحـدة التعـارف ، والتواصل والتـآلف بين المؤمـنين على اختلاف ألـوانهم ، وتباعد أقطارهم تحقيقاً ، لقــول الله تعالى : { .. **وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعـارفوا** .. } الحجــرات . والتعـــارف والتآلف مفتـاح كـلّ خـير في حيـاة الأمّة ، وما فقـدت الأمّة عزّتها ، وطمع بها عـدوُّها إلاّ عندما تفرّقت كلمتها ، وتمزّقت وحدتها ، وتــدابر أبناؤها ، ولعبت الأهــواء بعقــول رجالها ، ففقدت التعارف والتـآلف ، وحلّت بينها العــداوة والبغضــاء والتــدابر محــلّ المودّة والوئام ، ففشا الضعف والخور في الأمّة ، وأصـبحت غنيمة بـاردة لأعـدائها ، فلم يجدوا من أكـثر أبنائها مقاومة تـذكر ، بل وجدوا من بعضهم طاعةً عمياء ، وتبعيّة وولاء ، حتّى كانوا عونـاً لأعـداء الأمّة على أخيارها وصالحيها ..!

15 ـ وفي الحجّ : دورة تعليميّة لكلّ مـؤمن ومؤمنة ، تزيـدهم علمـاً

بـدين الله تعـالى وفهمـاً ، وبصـيرة بواقع الأمّة ووعياً ، وفيه يتهيّأ للمـؤمن أن يلتقي رجـــــالاً من أهل العلم والفضل من شتّى أرجاء العالم الإسلاميّ المتباعدة ، فيتعرّف عليهم ويجالسـهم ، ويتعلمّ منهم ، وينتفع بصحبتهم ممّا لا يتهيّأ له في سنين متطاولة ، وفي لقــاء المــؤمن بأهل العلم والفضل ما ينير قلبه ، ويشـدّ أزره ، ويثبّت فؤاده على الحقّ والهدى .

وبعد ؛ فما أحوجَنا أن نتعلّم هـــــــذه الـــدروس التربويّة وغيرها وغيرها .. ونحن نؤدّي مناسك الحجّ والعمـرة .! وما أحوجَنا أن تتمثّل في حياتنا العمليّة وســـــلوكنا ، وعلاقاتنا الاجتماعيّة وصـــلاتنا ، فنعـــود من أداء هــــذه الفريضة خـــــيراً ممّا ذهبنا ، ونقطف الثمــرات المباركة ، الــتي أرادها الله تعالى لنا .

اللهمّ إنّك ســألتنا من أنفســنا ما لا نملكه إلاّ بك ، فأعطنا اللهمّ منها ما يرضيك عنّا .

وصـلّى الله وسـلّم وبـارك على عبـده ونبيّه ســـيّدنا محمّد ، وعلى آله وصـــحبه أجمعين ، والحمد لله ربّ العالمين .

إنّ أداء هذا الركن الإسـلاميّ العظيم ، يجب أن يكـــون نقطة تحـــوّل في حيـــاة المؤمن ، يزداد به خـيراً ، وتقىً وصـلاحاً ، وإنّ المحروم من الخير كلّ الحرمان ، من كـان همّه من الحجّ أن يقـال : حجّ فلان .. أو أن يتبـــاهى بالزينة والمظـــاهر الفارغة التي لا تغني عن الحقّ شيئاً ..

ولقد ختم الله تعالى الحديث عن الحجّ بقوله ســـبحانه : { **فَـــإِذَا قَضَـــيْتُمْ مَنَاسِـكَكُمْ فَـاذْكُرُوا اللَّـهَ كَـذِكْرِكُمْ آبَـاءَكُمْ أَوْ أَشَـدَّ ذِكْـرًا ، فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُـولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الـدُّنْيَا ، وَمَا لَـــهُ فِي الآخِـــرَةِ مِنْ خَلاقٍ** (200) **وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَـنَةً ، وَفِي الآخِـرَةِ حَسَـنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** (201) **أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ، وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَـابِ** (202) } البقرة .

فـبيّن سـبحانه حـال الحجّـاج الـذين يَفـــــوزون بفضل الله ورحمته ، ومغفرته وقبوله :

ـ إنّهم الـذين جمعـوا بين خـيري الـدنيا والآخرة ، تحقيقـاً لمنهج الله ودينه ، الـذي يجعل الإنسان مسـتخلفاً في الأرض بمنهج الله ، ليعمرها وفق هديه ، وحدود تكليفه .

ـ إنّهم الذين تقوم حياتهم على التوازن والاعتـدال في كـلّ شـأن ، فلا يطغى فيها جانب على آخر ، حتّى ولو كان أمر الآخرة : { **وابتغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنسَ نصـيبَك من الـدنيا** .. } ، (**إنّ لعينك عليك حقّـاً ، ولزوجك عليك حقّاً ، فأعطِ كلّ ذي حـقٍّ حقّه**) .

ـ إنّهم الذين يعملون في الـدنيا ، ولكنّ قلوبهم متعلّقة بالآخرة ، وما أعـدّ الله فيها لعباده المؤمـنين من المغفـرة والتكـريم ، فلم يغـترّوا بمظـاهر الـدنيا الفارغة ، ولم تشغلهم عن ذكر الله والاستعداد للآخرة .

فعش أخي المـؤمن ما تسـتقبل من حياتك ، في ظلّ ما أدّيت من مناسك الحجّ ومشـاعره ومناسـكه ؛ عش في ظـلّ الطواف حول الكعبة ، وقلبك عاكف حـول عـرش ربّك ، وذكـرى السـعي بين الصـفا والمروة ، فـارّاً إلى الله من ذنوبك ، وفي ضراعة عرفـات ، وأنت تستشـعر ذلّك بين

يــــدي ربّك واضـــطرارك ، وانكســـارك وافتقـــارك ، وأنت تـــذكر إســـرافك على نفسك ، وتفريطك في جنب الله ، وتـذرف دمــوع النــدم والتوبة ، وعش مع ذكريــات مبيتك في منى ورمي الجمرات ، وتذكّر ما قطعت على نفسك من عهدٍ مع الله مراراً وتكـــراراً ، وأنت تقـــول : " **لبّيك اللهمّ لبّيك** .. " فقد أعلنت إجابة الله وطاعته ، إجابة متكرّرة ، دائمة مستمرّة ، فلا تكذّب نفسك اليـــوم ، فيما عاهـــدت عليه ربّك بالأمس .. تـذكّر الطـواف واسـتلام الحجر باليد أو بالإشـارة ، فـإنّ ذلك عقد مع الله ومبايعة ، وقد روي عن النبيّ أنّه قال : (**الركنُ يمينُ اللهِ عزّ وجـلّ ، يُصـافِحُ بها خلقَه**) [1] ، فمن اسـتلمه بحـقّ كـان له عند الله عهد ، فلا تنكث البيعة ، ولا تنقض العهد : { .. **فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فســـيؤتيه أجــــراً عظيماً** (10) } الفتح .

1(?) ـ الحديث روي من طرق كثيرة مرفوعاً وموقوفاً ، ولم يخل شـيء منها من قـدح ، ولكن قـال العجلـونيّ في كشف الخفـاء 1/346/ : له شـواهد ، فالحـديث حسن لغـيره ، وإن كان ضعيفاً بحسب أصله .

وحُضّ النــاس على أداء فريضة الحجّ ، وشوّقهم إليه ، ورغّبهم بثواب الله تعـالى ، وعظيم فضـله ، وهـوّن عليهم ما يتوهّمونه من المصـاعب ، ولاسـيّما الشـباب ، فـإنّ الحجّ صــيانة لهم ، وعصــمة لــدينهم ، تنل أجر من يحجّ بــدعوتك ، أو ينتفع بتوجيهك ، كما قـال النـبيّ : (**مَن دَلّ على خَـيرٍ فله مِثلُ أجرِ فاعِلِه**) [1] .

أخي المـــؤمن الحـــاجّ .! هـــذا هو المقيـاس الصـحيح للحجّ المــبرور ، وتلك مظــــاهره ، فمن أراد أن يطمئنّ لقبـــول حجّه ، فليكن أثر الحجّ في قلبه أن يزيد اهتمامه بآخرته ، وأن يزداد بحجّه استقامة وتقــوى ، فــإنّ علامة الحجّ المــبرور : أن يرجع الحـاجّ خـيراً ممّا كـان عليه ، فـذلك من علامـــات القبـــول والرضا : { **إنّما يتقبّل اللهُ من المتّقين** } المائدة .

اللهمّ اجعله حجّاً مـبروراً ، وسعياً مشـكوراً ، وذنباً مغفوراً ، وعملاً مقبولاً ، وتجـارة لن تبـور ، برحمتك يا أرحم الراحمين .

1(?) ـ رواه مسلم في كتاب الإمارة باب فضل إعانة الغـازي 6/41/ .

[illegible]

* أثر السيرة النبويّة
في تربية الفرد وبناء الأمّة (1)

قال والد مربّ لولده : ها أنت يا بنيّ كالزهرة المتفتّحة في روضة الربيع ، تشدو البلابل على أغصانها ، وتقبل عليها الفراشات تتراقص بجوارها ، وتأتيها النحلة ترشف من رحيقها ، ويتمتّع الإنسان ببديع ألوانها ، وعبق طيبها .. تقبل عليك الحياة كما تقبل العروس بأبهى حلّتها وأكرم بهجتها إلى عروسها ، فربّما التبست عليك المسالك ، وحار بصرك بين الموارد ، فإذا أردت الرشد في العقل ، والسداد في العمل ، وتمييز الحقّ من الباطل ، والصواب من الخطأ ، والتوفيق في جميع ما تُقدم عليه أو تحجم ، فاجعل من نبيّك المصطفى ، ورسولك المجتبى أسوة لك في كلّ شأن .. فالتمس هديه ، وتعرّف على سنّته ، واحرص على أن تترسّم خطاه ، تكن مهديّاً راشداً ، مؤيّداً مسدّداً .. وتنل من رضوانك ربّك في الآخرة ما يجعلك في فراديس الجنان في صحبة المصطفى ، فالنبيّ هو الأسوة العظمى للمؤمنين في كلّ شأن من شئون الحياة .. فإذا كنت طفلاً فلك في

رسول الله أسوة حسنة ، فانظر إلى طفولة النبيّ كيف كانت سامية عن الدنايا ، تبدو على صاحبها علائم النجابة وسُموّ الهمّة .

وإذا كنت يتيماً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، كيف كانت حياة هذا اليتيم مدعاة لعطف كلّ منْ عرفه ، فأحبّه وحرص على أن يتقدّم له بكلّ خير ..

وإذا كنت شابّاً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، كيف كانت حياة هذا الشابّ بعيدة عن أيّ صبوة من صبوات الشباب ونزواتهم ، وكيف كان نموذجاً للشابّ العفّ الكريم ، ذي المروءة والشهامة ، التي جَعَلَت حكماء الرجال يحتكمون إليه ، ويجلّونه ..

وإذا كنت زوجاً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، كيف كان زوجاً ودوداً وفيّاً ، يتواضع لنسائه ، ويرفق بأزواجه ، ويعدل بينهنّ ، ويداعبهنّ ويُمازحهنّ ، ويعينهنّ فيما يقمن به من خدمة ..

وإذا كنت أباً مُربّياً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، كيف كانت تربيته هي التربية المثلى لأولاده ، ولأولاد أولاده ، ولأصحابه ، ولكلّ من اتّصل به بأيّ سبب ،

وكان بالمؤمنين رءوفاً رحيماً ، وكان له من أساليب التربية الفاعلة المؤثّرة ما لم يعرفه أحد في مثل عصره .!

وإذا كنت ملكاً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، الذي لم يكن رسولاً ملكاً ، وإنما كانَ رسولاً عبداً باخْتياره ورغبته ، ملك القلوب ، ودانت لعظمة شخصيّته رقاب العظماء ، ووقف ببابه الأمراء والكبراء ، ومع ذلك فلم يُر إلاّ خاشع القلب متواضعاً قد وهب نفسه ووقته لكلّ فرد من أمّته ..

وإذا كنت مديراً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، كيف كان يدير شئون الناس بالرفق والرحمة ، يرحم الغافل ، ويرفق بالجاهل ، ويعطِ كلّ ذي حقّ حقّه ، ولا يرضى أن يظلم تحت رعايته أحد ..

وإذا كنت قائداً منتصراً وفاتحاً غالباً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، كيف لم يحمله انتصاره على أعدائه في مواطن كثيرة على أن ينتقم من أعدائه ، وينكّل بخصومه ، وإنّما كانت رحمته هي الغالبة ، وعفوه عند المقدرة هو الخليقة التي حكمت علاقته بخصومه وأعدائه ، حتّى استلّ من قلوبهم سخائم الحسد والحقد ،

وأقبلوا إلى دينه ودعوته مسلمين مستجيبين ..

وإذا كنت قائداً مهزوماً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، كيف لم تلن له قناة ، ولم تهن قوّته ، أو تضعف عزيمته ، وإنّما كان رابط الجأش ، عظيم الثقة بالله تعالى ، والتوكّل عليه ، كثير الضراعة ، والتذلّل بين يدي ربّه ، كما كان شأنه كذلك في انتصاره وتمكّنه ..

وإذا كنت تاجراً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، كيف كان تاجراً بمال خديجة رضي الله عنها أميناً صادقاً ، وكيف مارس التجارة بعد نبوّته في مواقف مختلفة ، فكان كريماً سمحاً ، يجعل التجارة باباً من أبواب نصرة دينه ، ونشر دعوته ..

وإذا كنت غنيّاً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، يوم كانت تأتيه الأموال الكثيرة ، التي كان يسعه أن يختصّ بها أزواجه وأهله ، فيقسمها بين أصحابه ، ويؤثرهم بها على نفسه وأهله .. ويوم أعطى المؤلّفة قلوبهم من الأموال ما لا تطيب به نفوس الملوك ، ولا تقدر عليه .. ويوم كان حاله في فقره ، لا يختلف عن

حاله في غناه ، لأنّه علّمنا أنّ حقيقة الغنى هو غنى النفس ، وأنّ عفّة النفس أكرم صفات المؤمن وأعزّها ..

وإذا كنت عاملاً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، إذ كان يحبّ العمل ، ويحثّ عليه ، ويدعو أمّته إلى إتقانه ، ويعمل مع أصحابه ولا يتميّز عنهم ..

وإذا كنت فقيراً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، يوم كان يجوع فيعصب على بطنه الحجر والحجرين من شدّة الجوع ، ويطوي على الجوع ثلاثة أيّام صابراً محتسباً ، لا يذوق فيها شيئاً ، ويحمل أزواجه الكريمات على مثل زهده في الدنيا والتقلّل منها ..

وإذا كنت طالباً متعلّماً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، كيف كان عندما يتعلّم من جبريل عليه السلام ، ويتلقّى عنه ، يقبل عليه بكلّيّته ، وينصت إليه بمسامع قلبه ، وكيف كان ينصت لمشورة أصحابه ، ويتفهّم آراءهم ، وربّما أخذ ببعضها دون أن يجد في نفسه غضاضة أو حرجاً ..

وإذا كنت معلّماً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، فانظر إلى رفق النبيّ في

تعليمه ، وصبره على جهل الجاهل ، وجفوة الأعراب .. وانظر إلى ترغيبه في العلم ، وحثّه عليه ، وتشجيعه على الاستزادة منه .. وانظر إلى أساليبه في التعليم ، كيف فاقت أساليب عصره ، بل أتى بأساليب في التربية والتعليم لم يعرفها الناس إلاّ في العصر الحديث ..

وإذا كنت خطيباً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، فانظر كيف كان النبيّ يؤثر بليغ القول وجوامعه ، ويوجز في خطبته ، ويجمع فيها حقائق الدين ومبادئه ، ولا يطيل على الناس ولا يملّهم ، ولا يذكر أحداً ولا يعَيّنه ..

وإذا كنت مذكّراً واعظاً ، فلك في رسول الله أسوة حسنة ، فقد كان الناصح الأمين ، والمرشد المبين ، يتخوّل أصحابه بالموعظة بين الحين والآخر كراهة السآمة عليهم ، ولا يكثر عليهم ، يجلّي لهم الحقائق ، ويضرب لهم الأمثال ، وكانت مواعظه تــؤثّر في القلوب ، وتذرف منها العيون ، فيستجيب لها السعداء ، وتزيدهم هدىً إلى هداهم .

وإذا كنت قاضياً فلك في رسول الله أسوة حسنة ، فقد كان يحرص على الصلح بين المتخاصمين ، ويطلب البيّنة ،

ويتحرّى الحقّ ، ويحكم بالعدل ، ويحذّر من شهادة الزور وقول الزور .

وإذا كنت آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر فلك في رسول الله أسوة حسنة ، فلتكن رحيماً رفيقاً ، واعياً حكيماً ، بعيداً عن الغلظة والتعنيف ، والاتّهام وسوء الظنّ ..

وإذا كنت داعياً إلى الله مرشداً ، فلك في رسول الله أسوة حسنة ، إذْ كان مبشّراً للمؤمنين ، ومنذراً للكافرين ، حريصاً على هداية الناس أجمعين ، صابراً على أذى الخلق ابتغاء وجه الخالق ، يتجاوز عن جفوة ذي الغلظة ، ويدعو له بالهداية ..

وإذا كنت عابداً لله متبتّلاً ، فلك في رسول الله أسوة حسنة ، إذْ كان يقوم من الليل حتّى تورّمت قدماه ، وعندما قيل له : أتفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ، قال : (أفلا أكون عبداً شكوراً .؟!) ، وكان يصوم حتّى يقول أهله : لا يفطر ، ويفطر حتّى يقولوا : لا يصوم ، وكان في كلّ باب من أبواب العبادة لا يدرك شأوه أحد ، وكان ينهى عن التنطّع في الدين والغلوّ ، ويدعو أمّـته إلى التوسّط والاعتدال ، وألاّ يحمّلوا أنفسهم من العمل إلاّ ما يطيقون ..

وإذا كنت مدبّراً لشئون الدنيا فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، إذ كان ﷺ يحبّ إتقان العمل وإحسانه ، ويعدّ ذلك عبادة لله تعالى وقربة ، وكان يدعو بسنّته وسيرته إلى الأخذ بالأسباب وإحكامها ، والاجتهاد في عمارة الأرض وابتغاء طيّب الرزق ، ويرشد أمّته إلى ما فيه صلاح دينها ودنياها ..

وإذا كنت مقيماً لعلاقات اجتماعيّة بين الناس ، ومجالساً أو مصاحباً ، فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، إذ كان ﷺ يكرم جليسه ويؤثره ، ويقبل عليه بوجهه وحديثه ، حتّى يظنّ أنّه آثر الناس عنده ، ويؤلّف أصحابه ولا ينفرّهم ، ويعينهم فيما هم فيه ، ولا يتميّز على أحد منهم ..

وأيّاً من كنت ، وفي أيّ موقع من مواقع الحياة حللت ، وكيف أصبحت أو أمسيت ، وعلى أيّ حال بتّ أو أضحيت ، فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، وقدوة مثلى ، تضيء لك بنورها ظلمات الحياة ، وتخرجك من متاهات الحيرة والضياع ، ولن تستطيع أن تجد في غير حياة المصطفى ﷺ ما يغنيك أو يجديك .. وانظر رعاك الله كم أصلحت حياته المباركة ، وسيرته الشريفة العطرة ، وهديه الممدود بوحي السماء ، ونور الله

المبين : من حياة أمم وشعوب ، وأخرج الله بها أناساً من الظلمات إلى النور ، ومن الضلالة والعمى ، إلى الخير والهدى ، منذ أوّل البعثة النبويّة المباركة ، إلى يوم الناس هذا ، ومن مشرق الأرض إلى مغربها .!؟ وإلى ما شاء الله تعالى وأراد ..

وقلّب النظر والمقارنة تارة أخرى فهل ترى إنساناً آخر غير المصطفى كان له مثل هذا التأثير ، أو عشره ، أو عشر عشره .. وصدق الله العظيم ، ومن أصدق من الله قيلاً : **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ** (2) .. **ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** (4) الجمعة .

* أثر السيرة النبويّة في تربية الفرد وبناء الأمّة (2)

إنّ عظمة العظمـــاء في جميع منابتها تقـــوم على أسس هي أســـباب لها ، كما ينبت جذع الشجرة من الجـذور ، وبحسب ما يكــون في تلك الأسس والأســباب من كـثرة وقـوّة ، تكـون قيمة العظمة وشـأنها وخلودها ، كالجَذع تكـون قوّته وضـخامته ، وثباته في وجه الرياح والأعاصير ورسـوخه بقـدر ما لجـذوره من كـثرةٍ تُغذّيـه ، وقـوّةٍ تحميه . هذا وأهمّ أسباب العظمة الحقيقيّة أربع :

1 ـ الصـــفات النفســيّة والأخلاق الشخصية .

2 ـ عظمة المبادئ والأعمال التي أتى بها .

3 ـ قوّته وكفايتــه ونجاحه في تنفيذ المبادئ التي أتى بها .

4 ـ مدى نجاحه في تكوين جيل قياديّ صـــــالح ، مؤهّل لحمل المســـــئوليّة ، والمحافظة على المبادئ ، ومتابعة تنفيذها .

وقد جمع الله هــذه الأســباب الأربعة للعظمة الحقيقيّة في شخص النـبيّ على أكمل صــورة وأوفاها ، وأجلّها وأعلاها ، إذ تحقّقت فيها ثلاثة جــــوانب : شـــــمولها واسـتيفائها ، وكمالها وسـموّها ، ووضـعها في مواضعها ، ومن ثمّ فقد وصـفت أخلاق النــبيّ بقول الله تعـالى : **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** (4) القلم .

ولا توصف الأخلاق بالعظمة إذا اختــلّ ركن من هـذه الأركـان الثلاثة ، فالشـجاعة صـفة كريمة مرغوبة ، ولكنّها عنـدما توضع في غـير موضـعها ، أو تكـون في الإنسـان في أمر دون آخر ، لا توصف بكمال ولا عظمة ..

والرحمة صفة كريمة مرغوبة ، ولكنّها عندما يعامل بها المجـرم الآثم ، أو البـاغي الظالم لا تقـلّ شـناعة عن البغي والظلم ، بل قد تكون سبباً لنشـر الشـرّ في الأرض .. وقس على ذلك بقيّة الأخلاق والصــفات ..

ولقد شبّ رسول الله محفوظــاً من اللــه تعـالى ، بعيـداً عن أدنـاس الجاهليّة وعاداتها ، فكـــان أفضل قومه مــــروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأشدّهم حياءً ، وأصدقهم

حــديثاً ، وأعظمهم أمانــة ، وأســماهم في اتّـزان شخصـيّته ، ونبل صـفاته ، وأبعـدهم عن الفحش والبــذاءة ، حتّى أســموه في قومه : " الأمين " ، قد عصـمه الله تعـالى من أن يتـــورّط فيما لا يليق بشـــأنه ، من عــادات الجاهليّة ، وما لا يــرون به بأســاً ، ولا يرفعون له رأساً ، وكان يصـل الـرحم ، ويحمل ما يثقل كواهـــل الناس ، مكرمـــاً للضـيف ، عونـاً للضـعيف ، يأكل من كـدّه وعمله ، ويعـــفّ عمّا في أيـــدي النـــاس ، ويقنع بقوتــه . * وكـان من أجمع ما وصف به من الشمائل :

ـ أنّه كـان دائم البشر سـهل الخلق ، ليّن الجــانب ، ليس بفــظّ ، ولا غليظ ، ولا صخّاب ، ولا فحّاش ، ولا عيّاب ، ولا مــدّاح ، ولا يجــزي بالسـيّئة السـيّئة ، ولكن يعفو ويصفح ، يتغافل عمّا لا يشــتهي ، ولا يُقنط منه ، قد تـــرك نفسه من ثلاث : الريـــاء ، والإكثـار ، وما لا يعنيه ، وتــرك النــاس من ثلاث : لا يذمّ أحداً ، ولا يعيّــره ، ولا يطلب عورته .

ـ وكان لا يتكلّم إلا فيما يرجو ثوابه ، وإذا تكلّم أطـــــرق جلســــاؤه كأنما على رءوسـهم الطـير ، وإذا سـكت تكلّمـوا ، لا

يتنــازعون عنــده الحــديث من تكلّم عنــده أنصــتوا له حــتى يفــرغ ، حــديثهم حــديث أوّلهم ، يضـــــحك مما يضـــــحكون منه ، ويعجب مما يعجبون منه ، ويصـبر للغـريب على الجفـوة في المنطق ، ويقـول : (**إذا رأيتم صاحب الحاجة فأرفـدوه**) ، ولا يطلب الثنـــاء إلاّ من مكـــافئ . هـــذا وقد تجلّى أثر الســيرة النبويّة في تربية الفــرد وبناء الأمّة في جوانب كثيرة أهمّها :

1 ـ قوّة الإيمان واليقين :

2 ـ الحبّ والتعظيم :

3 ـ الحــرص على التأسّــي والطاعة والاتّباع :

ولابدّ أنْ نــرى أثر هـــذه النقـــاط من خلال علاقة الصـحابة بـالنبيّ ، ومواقف السيرة العطرة ، ونقـــدّم نمـــاذج عنْ ذلك فيما يلي :

1 ـ قــوّة الإيمــان واليقين ، والثبــات على الحـــقّ مهما اشـــتدّ الابتلاء : ومواقف الســـيرة النبويّة طافحة بنمـــاذج ذلك من حياة النبيّ وحياة أصحابه الكرام ، فمن ذلك :

ـ موقف النـــبيّ عنـــدما هـــدّد المشــركون عمّه أبا طــالب : إن لم يكـفّ

النبيّ عن دعوتهم إلى دينه ، وتسفيه دينهم ، وعيب آلهتهم ، أن يعلنوا له العداوة والحرب ، فقال : (**والله ! يا عم لو وضعوا الشمسَ في يميني ، والقمر في يساري على أن أتركَ هذا الأمر ما تركته حتّى يظهره اللهُ ، أوْ أهلك دونه**) .

ـ موقفُ الصحابة في غزوة بدر :

وفي غزوة بدر عندما فوجئ الصحابة بالمعركة مع المشركين ، وقال لَهم النبيّ : (أشيروا عليّ أيّها الناس !) ، أجمعت كلمةُ المهاجرين والأنصار على المضيّ في طاعة الله ورسوله دون تردّد أو تلكّؤ .. فجاءتهم بشائر النصر ، بأمداد من الملائكة يقودهم جبريل الأمين عليه السلام ..

ـ موقف زيد بن الدثنّة عندما قدّم للقتل :

وعندما قدّم المشركون زيداً للقتل في مكّة ، تقدّم منه أبو سفيان ، وكانَ مشركاً ، وقَال له : أنشدُك بالله يا زيد ! أتحبّ أنّ محمّداً مكانك نضرب عنقه ، وأنّك آمن في أهْلك .؟ فقالَ له : " والله ما أحبّ أنّ محمّداً تصيبه شوكة حيث هو ، وأنّي آمن في أهْلي " . فقالَ أبو سفيان :

" والله ما رأيت أحـــداً يحبّ أحـــداً كحبّ أصحاب محمّدٍ محمّداً " .

ـ موقف مــاعِز والغامديّة : جــاء في الحــــديث الصــــحيحِ أن مــــاعز بن مالك الأسـلمي أتى رسـول الله فقـال : " يا رســـول الله ، إنّي ظلمت نفسي وزنيت ، وإني أريد أن تطهّرني " فـردّه ، فلمّا كـان من الغد أتاه فقـال : يارسـول الله إنّي قد زنيت " فردّه الثانية ، فأرسل رسـول الله إلى قومه فقال : أتعلمـون بعقله بأسـاً ، تنكـرون منه شـيئاً ؟ فقـالوا : ما نعلمه إلا وفيَّ العقل من صالحينا فيما نـرى ، فأتـاه الثالثة فأرسل إليهم أيضــــاً فســـأل عنه ، فـــأخبروه أنه لا بـــأس به ولا بعقله ، فلما كـــانت الرابعة حفر له حفــــرة ثم أمر به فرجم .

قـال : فجـاءت الغامدية فقـالت : " يا رسـول الله إني قد زنيت فطهّـرني " وأنّه ردّها ، فلمّا كان من الغد قالت : يا رسـول الله لمِ تردّني ؟ لعلّك أن تردّني كما رددت مـاعزاً ، فوالله إنّي لحبلى . قـال : إمّا لا ، فاذهبي حتّى تلدي . قال : فلمّا ولـدت أتته بالصبيّ في خرقة فقالت : هـذا قد ولدته . قــال : فــاذهبي فأرضــعيه حتّى تطعميه ،

فلمّا فطمته أتت بالصـــــبيّ ، في يــــده كسرهة خبز ، فقالت : هـذا يا نـبيّ الله قد فطمته ، وقد أكل الطعـام ، فـدفع الصـبيّ إلى رجل من المســـلمين . ثمّ أمر فحفر لها إلى صــدرها ، وأمر النــاس فرجموها . فاســـتقبلها خالد بن الوليد بحجر فــــرمى رأسها ، فنضح الدم على وجه خالد فسـبّها ، فسـمع نـبيّ الله سـبّه إياها فقـال : مهلاً ياخالد ، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صـــاحب مكس لغفر له " ، ثم أمر بها فصلَّى عليها ودفنت .

2 ـ الحبّ والتعظيم :

* ـ بعد غزوة أحد عاد المسـلمون إلى المدينة فمرّوا بامرأة من بـني دينـار ، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ، فلمّا نُعوا لها ، قالت : فما فعل رسـول الله ؟ قــالوا : خيراً يا أمّ فلان هو بحمد الله كما تحبّين ، قالت : أرونيــه حتّى أنظر إليه ، فأشـير لها إليه ، حتّى إذا رأته قـالت : كلّ مصيبة بعدك جلل .

* ـ وحين رجع عثمـان من مكّـة في صـــلح الحديبية قـــال لـــه المســـلمون : اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت ؟ فقال : بئسما ظننتم بي ، والـذي نفسي

بيــــده لو مكثت بها سنة ورســــول الله مقيم بالحديبية ما طفت بها حتّى يطـــوف بها رسول الله ، ولقد دعتني قـريش إلى الطواف بالبيت فأبيت " .

* ـ ووصف عـروة بن مسـعود الثقفيّ أصـــــحاب النبيّ بقوله : أي قوم ! والله لقد وفــدت على الملــوك : على كســرى وقيصر والنجاشــيّ ، والله ما رأيت ملكــاً يعظّمه أصــحابه ما يعظّم أصــحاب محمّد محمّداً ، والله ما تنخّم نخامة إلاّ وقعت في كـــفّ رجل منهم ، فـــدلك بها جلــده ووجهه ، وإذا أمــرهم ابتدروا أمــره ، وإذا توضّــأ كـادوا يقتتلـون على وضـوئه ، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنـده ، وما يحـدّون النظر إليه تعظيماً له .

* ـ وقدم أبو سفيان على رسـول الله المدينة ، ودخل على ابنته أمّ حبيبة زوج النــبيّ ، فلمّا ذهب ليجلس على فــراش رسـول الله طوته عنه ، فقـال : يا بنيّة ! ما أدري أرغبت بي عن هــذا الفــراش أم رغبت به عنّي .؟ قــالت : بل هــو فــراش رســـول الله ، وأنت امــــرؤ نجس ، ولم أحبّ أن تجلس على فـراش رسـول الله ، قال : والله لقد أصابك بعدي شرّ .

* ـ وبعد فتح مكّة همّ فضالة بن عمير أن يقتل رسول الله وهو يطوف بالبيت ، فلمّا دنا منه قال له : أي فضالة !؟ قال : نعم يا رسول الله ! فقال : ماذا كنت تحدّث به نفسك .؟! قال : لا شيء ! كنت أذكر الله ، فضحك النبيّ ، ثمّ قال : أستغفر الله ، ثمّ وضع يده على صدره ، فسكن قلبه ، وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتّى ما خلق الله شيئاً أحبّ إليّ منه .

* ـ وعندما وجد الأنصار في أنفسهم بعد قسمة غنائم حنين ، جمعهم النبيّ ، ثمّ قال لهم : (أوجدتم عليّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألّفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم .؟!)

(ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وترجعون برسول الله إلى رحالكم .؟! فوا الذي نفس محمّد بيده لما تنقلبون به خيرٌ ممّا ينقلبون به ، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وادياً ، وسلك الأنصار شعباً وادياً لسلكت

شـــعب الأنصـــار ووديها .. الأنصار شــعار ، والناس دثــار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار) .

فبكى القـــوم حتّى أخضــــلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظّـاً .

3 ـ الحـــرص على التأسّــــي والاتّباع :

وكان من شدة طاعتهم له أنه نهى أهل المدينة عن كلام الثلاثة الـذين تخلفـوا عن غـزوة تبـوك ، فما كـان من النـاس إلا أن أطــاعوه وأصــبحت الدينة لهــؤلاء كأنها مدينة الأمــــوات ليس بها داع ولا مجيب . يقول كعب : ونهى رسول الله عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، قــال : فاجتنبنا الناس ، أو قال : تغيروا لنا ، حــتى تنكـــــرت لي نفس الأرض فما هي الأرض التي أعرف ، إلى أن قال : حـتى إذا طـال علي من جفـوة المسـلمين مشـيت حـتى نسورت جـدار حائط أبي قتـادة ــ وهو ابن عمي وأحب النــاس إلي ـــ فســلمت عليه فوالله ما رد علي الســـلام ، فقلت له : يا أبا قتــادة أنشــدك بالله هل تعلمــني أحب

الله ورسوله ؟ فسـكت ، فعـدت فناشـدته فســكت ، فعــدت فناشــدته فقــال : الله ورســـوله أعلم ، ففاضت عيـــني ، ووليت حتى تسورت الجدار .

وكان من طاعته أيضـاً وهو في موضع عتاب وجفوة أن رسولَ رسولِ الله يأتيه ويقــول له : إن رســول الله يــأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقال أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقـال : لا بل اعتزلها فلا تقربنها ، فقـال لامرأته : الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله من هذا الأمر .

وكان من حبه للرسول وإيثـاره على كل أحد في الدنيا ، أن ملك غسان يخطب وده ، ويســـــــتلحقة بنفسه ، وتلك محنة عظيمة في حـال الجفـوة والعتـاب ولكنه يـــرفض ذلك ، قـــال : بينما أنا أمشي فيل سوق المدينة إذ نبطيٌّ من نبط أهل الشام ممن قـدم بالطعـام يبيعه بالمدينة يقـول : من يـــــدلني على كعب بن مالك ، فطفق الناس يشيرون له إلي حـتى جـائني فـدفع إلي كتابـاً من ملك غسـان ــ زكنت كاتبـاً فقرأته فــإذا فيه : أما بعد : إنا قد بلغنا أن صـاحبك قد جفـاك ، ولم يجعلك الله بـدار هــوان ولا مضــيعة ، فــالحق بنا نواسك .

فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها .

ومن غـرائب الطاعة وسـرعة الانقيـاد ما حــدث عند نــزول النهي عن الخمر في مجلس شــرب ، فعن أبي بريــدة عن أبيه قـــال : بينما نحن قعــود على شـــراب لنا ونحن نشــرب الخمر حلة ، إذ قمت حــتى آتي رسـول الله فأسـلم عليه ، وقد نـزل تحــريم الخمر : { ياأيها الــذين آمنــوا .... لعلكم تفلحــون (90)ـ } إلى قوله { فهل أنتم منتهــون (91) } المائــدة . قــال : وبعض القوم شربته في يده شـرب بعضــاً وبقي بعض في الإنـاء ، فقـال بالإنـاء تحت شـفته العليا كما يفعل الحجـام ، ثم صـبوا في بـــاطيتهم فقـــالوا : انتهينا ربنا ! انتهينا ربنا .

وبعد ؛ فما أعظم الحقائق التي يجـدها المــربّي في ريــاض السيرة النبويّة ، يجــد فيهَــا حقـائق الإسـلام تتجَسّـد في مواقف النبيّ وشمائله وهديه ، وعلاقاته بأصحابه في جميع الأحــــوال ، وعلاقاته بأعدائه في الســـــلم والحرب ، وهي خير مادّة لتنشئة الطفل على حُبّ اللـــــــه ورســــــوله ، والاعتزاز بالإسلام ومبادئه وأحكامه .

[illegible]

في الإنسان فطرة لا تقبل التحـــوير والتغيــير ، وهي التطلّــع إلى مَن يعجب بسلوكه ، ويتأسّى به ، يمنح ذلك أوّل مــا يمنحه أمّــه وأبــاه ، ثمّ كلّما كــبر ونما ، وتعــــرّف على النــــاس من حولِه بحثَ بشـكل فطـريّ ، وبغير شـعور منـه عمّن يعجب به أكــثر ، ويجـــد فيـــه أسوة له وقـــدوة ، تشـــبع نهمته ، وتبني كيانه ، وتحقّق له تطلّعاته ..

ومِن رحمة اللهِ بالإنســان أن حقّــق له هــــذه النهمة الفطريّة والحاجـــــة الضروريّة بما جعل له في سـيرة الأنبيـاء والرسل وحياتهم عليهم الصـلاة والسـلام من أسوة حسنة ، وبخاصّة نبيّه محمّـداً ، سـيّد الخلق ، وخاتم الأنبيـاء والرسل ، إذ جعله معصوماً عن الخطإِ ، منزّهـاً عن اتّباع الهوى : **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهـوى** (3) **إِنْ هُـوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُـوحَى** (4) النجم .

ويقول الله تعالى : **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَـنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِـرَ وَذَكَـرَ اللهَ كَثِيراً (21)** الأحزاب .

فهل عــرفت الإنســانيّة فــتىً أطهر سيرة ، وأزكى سريرة ، وأشرف نســباً ، وأكــرم حسـباً ، وأعظم خلقـاً من محمّد بن عبد الله .؟

لقد لقّبته قـــــريش الأمينَ ، وأجمع على ذلك عقلاؤها ، ولو عَــــــرَفَت أحد زعمائها بذلك لما ضنّت عليه بتلك الصفة ، واختصّت بها محمّداً من دونه .

ووصـــــفته زوجه العاقلة الحكيمة ، خديجة رضي الله عنها ، وقد عاشت معه خمس عشـرة سـنة قبل النبـوّة ، خـبرت خلالها شخصيّته وأخلاقه ، فقـالت له أول عهـــده برســـالة الســـماء ، وقد داخله الخــوف مما جــرى معه : " **كلا ! والله لا يخزيك الله أبـــــداً ؛ إنك لتصل الــرحم ، وتحمل الكــلّ ، وتقــري الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحقّ** " .

وكــــان يعفو عمّن ظلمه ، ويصل من قطعه ، ويعطي من حرمه ، ولم يكن يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها ، وإنما يغضب إذا انتهكت حرمـــات الله ، فـــإذا انتهكت حرمات الله تعالى لم يقم لغضبه شيء .

ولقد أوذي في الله تعالى أشدّ الإيذاء ، فلم يدع على قومه ، ولم يتطلّع إلى الانتقام منهم ، وإنما كان يقول : (**اللهمّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون**) .

وعندما ناله منهم أشدّ الأذى عُرض عليه عذابهم وهلاكهم ، فقال : (**لا ، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ، لا يشرك به شيئاً**) .

إنّه أعظم إنسان لبس جلباب العبوديّة لله تعالى ، ونعم بأكرم مراتبها ، قد شغف قلبه الشريف بعبادة ربّه ، والاستغراق في مناجاته وذكره ، فكان يجتهد في التعبّد عبادة خشوع وخضوع ، وخشية ودموع ، وإخلاص في التوجّه إلى الله تعالى وابتغاء مرضاته ، قام من الليل حتّى تفطّرت قدماه ، وعندما قيل له : أتفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر .؟! قال : أفلا أكون عبداً شكوراً .. ولم يمنعه اجتهاده في العبادة من أن يكون مبادراً إلى كل عمل في حينه ، بدون تأخير يفقد العمل قيمته ، أو تعجّل بالعمل قبل وقته ..

لقد جمع الرسول جمعاً فريــداً في التاريخ بين أعلى درجات النقـاء الـروحيّ بالاجتهـاد في عبـادة الله تعـالى ، وأعْلى درجات العمل والنشاط ، دعــوة إلى الله تعالى ، وتربية لأمّته ، وجهـاداً في سـبيل الله ، وبنـــاءً لدولة الإســلام ، وتســييراً لشئونها وتنظيماً ..

ومن أبرز خصاله الشخصـيّة النـادرة بين العظمـــاء ذوي الســـلطان : مزيد التواضع والحيـــاء والإيثار ، وكـــان من تواضــعه بعــده عن كــلّ صــور الأبهّة ومظــاهر التعــاظم ، الــتي يتميّز بها في العـادة الحكّـام والرؤسـاء ، ويحرصـون عليها أشـدّ الحـرص ؛ فكـان يتسـاوى مع أتباعــه في المأكل والملبس ، والمظهــر والمجلس ، وما يقـــوم به من الأعمـــال البدنيّة ، ويكره أن يتميّز عنهم في شـيء .

وكان من إيثاره وزهده أنّه قد يأتيه ما يملأ الـــوادي من الأمـــوال والغنـــائم والهدايا ، فيوزّعه كلّه من فـوره ، ويـبيت ليس عنده منه شيء ..

ومن خصــاله الشــريفة النــادرة : إذعانه للحــقّ على نفســه ، حتّى مع من يخالفه في الـــدين ، ويعلن له العـــداوة

والخصـومة ، ويـدخل في هـذه الخصـلة الكريمة : صبره الجميل ، واحتماله للأذى ، وسـعة صـدره على إسـاءة الجهّـال ، وجفوة الأعراب .

ـ ومن أهمّ ما يميّز سـيرته المثاليّة بين سـائر العظمـاء : التزامه الشـديد بتطبيق الأخلاق التي يدعو إليها ، التزامـاً لا خـروج عنه ولا اسـتثناء ، حتّى مع أعدائه ، فلا تنـاقض ولا اختلافٍ بين الـدعوة والسـلوك ، فلم ينقض عهـداً مع عـدوّ ، ولم يحـاول غـدراً بخصم ، مهما كان يائساً منه ، ويخشى غدره .. وكان قـدوة للنـاس في كلّ ما يـأمرهم به ، وأبعد الناس في هديه وسيرته عن كلّ ما نهى النـاس عنه .. ولن يسـتطيع مقـال عاجل أن يلمّ بشـيء من جوانب العظمة في شخصيّة رسول الله وأخلاقه ..

وبعد ؛ فـإنّ حاجة الناشئ إلى مثل أعلى يتعلّق به قلبُه ، ويطمح إليه نَظَـرُه ، حاجة أكيـدة ماسّـة .. وإنّ ما نشـكوه اليوم منْ ضياع شـباب الأمّة وراء التعلّق بـالنكِرات ، والافتتـان بكـلّ أفّـاك أثيم .. سَببُه الأوّلُ والأكبر تقصير الآباء والمربّين في تقديم القدوة الحسـنة لأبنَـائهم ، من أنفسـهم وسـلوكهم ، والمثل الأعلى من شخصيّة النبيّ وسـيرته العطـرة وهديه ..

وإنّنا بحاجة إلى إصلاح مناهج التعليم ، التي تقدّم السيرةَ النبويّةَ تاريخاً لدولة ، وعلاقات صراع وحروب ، أكثر ممّا تقدّمها مثلاً أعلى للإنسان ، ولا تبرز جانب الأخلاق والسلوك ، بِما يتناسبُ معَ أهمّيّته ، ويلائم نموّ الطفل ونشأته واهتمَاماته ، فلا تتّصل السيرة بهذه الطريقة بعاطفة الناشئ ووجدانه ، وقلبه وروحه ، وإنّما تأخذ حظّها مادّة من الموادّ العلميّة الجافّة ، التي قصارى ما يفكّر فيه الطالب تجاهها أن ينال درجة النجاح ، ثمّ لا يهمّه بعد ذلك أن يهملها ويتناساهَا .. وإنّ الصورة الوضيئة ، التي أراد الله تعالى لهذه الأمّة أن تتعامل بها مع نبيّها هي صورة الأسوة الحسنة ، والقدوة المثلى ، كما قال تعالى : **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ، وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً** (21)ـ الأحزاب .

فما أحسن أن يربط الآباء والمربّون الأبناء والناشئين بشخصيّة النبيّ وسيرته العطرة ، حبّاً واتّباعاً ، وتدارساً واهتماماً ، لتمتلأ قلوبهم تعظيماً لشريعته ، وحبّاً لسنّته ، وتبتعد بقدر ذلك عن الافتتان بما سواها من المناهج

والاتّجاهات .. وإنّا لنرجو ذلك ونتمنّاه ، والله وليّ التوفيق والسداد ..

* وإذا مَرضتّ فهو يَشْفِين ..

الابتلاء بالمرض باب من أبواب العبادة لله تعــالى ، يغفل عنه كثــيرٌ منَ النــاس ، وبخاصّةٍ في تَربية أولادهم .

وإنّ من أعظمِ دلائل ربوبيّة اللــه على عبـــاده مَـــا يقـــدّر عليهم من الأمراض والابتلاءات يقول الله تعالى : ﴿ لَتُبْلَـوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ .. (186) ﴾ آل عمران . ويقول تعالى : ﴿ .. وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّـرِّ وَالخَيْـرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (35) ﴾ الانبياء .

وما يقدّر الله على عباده من أمراض وابتلاءات إنّما هو لحكمٍ جليلة كثـيرة ، قـد يظهر بعضُها للعبـد ، وقد يخفى عليه كثـير منها ، ويكفي المـؤمن أن يعلمَ ويـوقن أن اللهَ تعـالى حكيم عليم ، وأنّ كـلّ ما يقـدّر له فهو له خير ، لأنّه إذا أصابته سرّاء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصـابته ضـرّاء صـبر فكان خيراً له .

ومن حكمـــة الابتلاء بـــالأمراض تحقّقُ العبد بصدقِ العبوديّة لله تعالى ، فالمريض المتـألّمُ ، الخـائفُ من عاقبـة مرَضه تـراه يدْعُو الله بتـــذلّل وانكســـار ، ليسَ كحال الإنسان وهو في صحّته وعافِيتِه .

كما أنّ من حكمـــة الله تَعـــالى في الابتلاء بـالأمراض تكفـير السـيّئات ، ورفع الدرجات ، فـالأمْراض تكفّر السـيّئات ما لا تكفّره الطاعات والأعمـال الصـالحة ، لكن شـريطة أن يحتسب العبد ذلك عنْـد الله ، وقد جاء في الحديث : (**مـا يـزال البلاء بـــــــالمؤمن والمؤمنة ، في نفسه وولده ومالـه حتّى يلقى الله تَعـالى ، وما عليه خطيئة**) [1] .

ومن حكمة الابتلاء بالأمراض نيل العبد محبّة الله تعالى ، كما جاء في الحديث : (إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإنّ اللـه تعـالى إذا أحبّ قومـاً ابتلاهم ، فمن رضي فلـه الرضا ، ومن سـخط فلـه السـخط) [2] .

ومن حكمة الابتلاء بالأمراض أن يتذكّرَ المـــــؤمنُ الموتَ والآخـــــرةَ ، ويعلمَ أنّ المرضَ مقدّمةُ الموت ، فيستعدّ للقاء الله بالجدّ والعمل الصالح .

فعلى الوالـــد والمـــربّي التأكيد على الطفل في كلّ مناسـبة أنّه لا يـأتي بـالنعَم إلاّ الله ، ولا يــــدفع النقم والبلاء إلاّ الله ،

1(?) ـ رواه الترمذيّ وقالَ : حديث حسن صحيْح .
2(?) ـ رواه الترمذيّ وقال : حديث حسن .

وتكـرار هـذه الآية الكريمة على سـمعه : ﴿ وإذَا مَرِضتّ فَهُوَ يَشْفِينِ (80)﴾ الشعراء ، وتعليمه الأدعية النبويّة المأثورة التي يدعو بها المريض ، عبوديّة لله تعالى ، واعتمـاداً عليه سبحانه .. وأنّ على المـؤمن أن يأخذ بأسـباب الشـفاء من مراجعة الطـبيب ، وتنَاول الـدوَاء وأن يعتقد أنّ الشـفاء بيـد الله وحده ..

* نظرات أوّليّة في ثقافة الطفلِ .!

تشمل التربيةُ الإسلاميّةُ جسدَ الإنسانِ وعقلَه وروحَه ؛ وقدْ شَرع الله لكلّ جـانب من هذه الجوانب ما يصـلحه ، ويـرقى به ، ويسـعده ، وأكثَـرُ ما شـرعه الله تعـالى لعباده جعل فيه حظّاً لكلّ جـانب من هـذه الجوانب ، لأنّ الإسـلام ينظر إلى الإنسـان كيانـاً واحـداً ، لا أجـزاءاً متفرّقة .. وتبقى بعد ذلك لكـلّ جـانبٍ خصوصـيّته ومطالبُه واحتياجاته .

وفيما يتعلّق بتربية عقل الإنسَـان وفكـره ؛ فالإسـلامُ يـربّي عقل الإنسَـان وفكـره بـالعلمِ النـافعِ ، والثقافـةِ المنبثقة عن عقيدَة الإسلامِ ومبادئه وقيمِه وآدابه .

وقبل أن نتحـدّث عن ثقافة الطفـلِ المسـلمِ علينا أن نحـدّد مفهومنا عن الثقافة ، من خلال النظر اللغـويّ ، وما ذكر منْ مفهوم عامّ عن الثقافة .

قـال في المعجم الوسـيطِ : " ثقِف يثقَف وثقُف يثقُف ، صـار حاذقـاً فطنـاً ، والثقافة : العلومُ والمعارفُ والفنونُ الـتي يُطلب الحذق فيها " .

وعـرّف مجمع اللغة الثقافة بقوله : " كـلّ ما فيه اسـتنارة للـذهن ، أو تهـذيب

للذوق ، وتنمية لملكة النقد والحكم ، لـدى الفـــــــرد والمجتمع " ، وهو تعريف يغفل الخصوصــــيّة الفكريّة لكـــلّ أمّة ، ويجعل الثقافة أقرب إلى العلم أو أشبه به .

وعلى ضــوء التعريف اللغــويّ، وهــذا المفهـوم العـامّ للثقافة ، فإنّنا نَسـتطيع أنْ نَضـعَ تعريفـاً نرتضـيه للثقافة الإسـلاميّة ، نجعله مُرتَكَزاً لنا في هذه الكلمة ، فنقـولُ :

" **الثقافة في تصوّرنا هي تربيةُ الفكر ، وتَقـويم السـلوك ، بـالقِيَم والمبـــــــادئ والآداب المنبثقة عن التصـوّر الإسـلاميّ لعلاقة الإنسـان بالله ، والكون ، والحياة ، والإنسـان** " .

وأهمّ ما يلاحظ في هـــذا التعريف أنّ الثقافة تجمع بين **العقيــدة والعبــادة ، و**العلم والعمل ، والفكر والســلوك ، ومن هنا فهي تزيد على الفكر الجانبَ السلوكيّ ، الــذي يتّصل بالتربية ، وتختلف عن العلم أنّها تعبّر عنْ هوّيّة الأمّة التي تتحــدّث عنهَا ، فلكلّ أمّةٍ ثقافتها ، الـتي تنبثق عن قيمها ومبادئها ، وتصوّرها عن الحياة وفلسـفتها ، أمّا العلم ؛ فمنْه ما يتّصل بثقافة الأمّة وهويّتها ، ومنه ما يكــــون من العلـــــوم

التجريبيّة الـــتي لا علاقـــةَ لها بثقافة الأمّة وهويّتها ، ومن ثمّ فهو إرث إنسانيّ مشــاع بينَ شـتّى أمم الأرض ، على اختلاف قيمها وعقائدها ..

كما يلاحظ في هـــــــذا التعريف أنّ المحدّد الأساسيّ للثقافة الإسلاميّةِ ، يقوم على التصــوّر الإســلاميّ لعلاقة الإنســان باللهِ ، والكون ، والحياة ، والإنسان .. وهو أيضاً المحدّد الأساســيّ لثقافة كــلّ مجتمع وأمّة ..

وانطلاقاً من تعريفنا للثقافة الإسلاميّةِ ، فـــإنّ ثقافـــةَ الطفل المســـلم تســـتَمدّ حقائقها من حقـــائق الثقافة الإســـلاميّة وخصائصها ، ولكنّها تمــتزج بها على حسب طبيعة المرحلة ، الــــتي يمـــرّ بهَا الطفل ومتَطلّباتها .

وإذ ذكرنا في التعريف أنّ الثقافة **تقــوم على تربية الفكر ، وتَقــويم السلوك ،** فلابــدّ أن نشــيرَ هنا أنّ التربية في حقيقتها هي البنـــاء المتــدرّج للثقافة ، القـــائم على الالـــتزام بمنهجيّة خَاصّـــة ، ومتَابعة دقيقة ، للإنســـان في كـــلّ مرحَلة يمرّ بها .

وإنّ واقع الطفل الثقــــافيّ يتـــــأثّر بالدرجة الأولى ويعتمد على ثقافة من

يتلقّى عنه ، ومســــــــتوى تكوينه ، إذ إنّ الطفل يتأثّر في مرحلة طفولته المبكّـرة ، وفي مرحلة نشـــأته إلى بلوغه ونضـــجه ، بمنْ يتلقّى عنه ، فما لم يكن الوَالد أو المربّي متمتّعاً بالصـفات الثقافيّة الإيجابيّة ، والمستوى الراقي ، فمن العبث الحـديث عن بناء ثقافيّ متميّز لطفلنا الواعدِ .

فعندما يكون المستوى الثقـافيّ للوَالد أو المربّي متدنّياً ضــعيفاً ، فإنه لن يتعامل مع الطفل بإيجابيّة ، ولن يكــون له أثر في نمو الطفل ، ورقيّه النفســيّ والمعــرفيّ ، بل ربّما كـــان معوّقـــاً لمواهبه ، ومـــدمّراً لإبداعه ، وسبباً لإهدار إمكاناتِه وطاقاته ..

والأمّة الواعية لثقافتها ، المعـــــــتزّة بهوّيّتها ، المخلصة لها توظّف كـلّ إمكاناتها وطاقاتها ، وتسخّر كـلّ أسـاليبها ووسـائلها لخدمة ثقافتها ، وتعميم قيمها في المجتمع ومفاهيمها ..

ـ ثمّ إنّ الثقافة الإسـلاميّة تقـوم على أصول كلّيّة ، هي مصادر ثقافتنا ومرجعها ، وفروع لا تَتعارض مع الكُلّيّـات والمصـادر ، بل تســـــتمدّ منها ، وهي تتّصل بالحيـــــاة العمليّة ، وما يحدث فيها من مستجدّات .

والأصـــــــــول الكلّيّة العامّة **للثقافة الإسلاميّة** ، تشكّل أمصال المناعة ، التي لَو أحكِمَت في بنــاء الأمّة لما اســتطاعت قوّة من قوى الأرض أن تخـترق حصـونها ، أو تعبث بمقدّراتها ..

أهمّيّة **الثقافة الإسلاميّة** لأطفالنا :

وتتجلّى أهمّيّة **الثقافة الإســـــــــلاميّة** لأطفالنا في جوانب عديدة أبرزها :

1 ـ أنّ الأمّة تعـــاني من الاخــــتراق الثقافيّ ، والغزو الفكريّ على كلّ مستوى ، وما لم تحصّن أجيالها الصـاعدة ، فلا أمل لها في نهضة أو رقيّ .

2 ـ وأنّ الاخـتراق الثقـافيّ ، والغـزو الفكـريّ هو أخطر سـبيل لإبقـاء الأمّة في مستنقع التخلّف والتبعيّة .

3 ـ أنّ **الثقافة الإسـلاميّة** الأصـيلة هي السـبيل للتحـرّر من العـادات والتقاليد الفاســـدة ، والأوضــــاع الاجتماعيّة الدخيلة على قيم الإســلام ومبادئه وآدابه ، وكثـيراً ما تلصق بالإســـلام غفلة وجهلاً ، وتكـــون مدخلاً لمحاربة الإسلام وتشويه صورته ..

4 ـ أنّ وسـائل الاخـتراق الثقـافيّ في هذا العصر قد تعدّدت وتنوّعت ، وتطــوّرت ، واســــتخدمت فيها أحـــــدث التقنيّـــــات والأساليب ، ممّا يحتّم على الغيــورين على

دين الله تعــالى أن يكونــوا على مســتوى العصر ، وأهلاً لإدارة الصــــراع ، ومواجهة التحدّي .

والنظرة **العامّة للثقافة الإسلاميّة** تقتضــينا الإشــارة إلى أهمّ **خصائصــها ،** الــتي هي من خصــائص الإســلام العامّة ، وتتجلّى في كلّ جانب من جوانب الحياة .

فمن أهمّ خصائص الثقافة الإسلاميّة :

1 ـ أنّها ربّانيّة المصــــدر والغاية : فمصــــدر الثقافة الإســـلاميّة هو الـــوحي المعصـوم ، من كتـاب الله تعـالى ، وسـنّة نبيّه ، والغاية الــتي يتطلّع إليها المســلم هي الفــوز بمرضــاة الله تعــالى ، ومن ثمّ فهو ينظر بثقة واطمئنان إلى كلّ ما يتلقّاه عن الكتاب والســـنّة ، لأنّه يتلقّـــاه عن المصـدر المعصـوم الـذي : لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه .. ولا يســـعه أمـــام أيّ أمر أو تكليف إلاّ أن يقـــول : { **سَــــمِعنا وَأَطَعنا ، غُفرانَـــكَ رَبّنا ، وَإليكَ المَصِيرُ** (285) } البقرة .

2 ـ أنّها تقوم على الاجتهـاد والحـوار : ومع ربّانيّة مصــــدر الثقافة الإســـلاميّة وأصـــولها وغايتها ، فـــإنّ من حكمة الله تعالى ورحمته بعباده أن ترك لهم مســاحة

واسـعة للاجتهـاد في الـدين ، فيما لم يـرد فيه نصّ خـــاصّ ، على ضـــوء النصـــوص العامّة ، والقواعد الشـــرعيّة ، والكلّيّـــات والمقاصد ، وفتحُ الباب للاجتهـاد بشـروطه وضــوابطه ، يعـني التشـجيع على الحــوار حول كلّ قضيّة ، وبخاصّة من المسـتجدّات ، وفق منهجيّة شـرعيّة مضـبوطة ، لتبـادل الآراء ، وتفهّم وجهـــات النظر ، والأخذ بما هو أقـــرب إلى روح الشـــريعة ، ومقاصد الأحكام .

3 ـ ومن خصـائص الثقافة الإسـلاميّة : العــدل والتــوازن : فشــريعة الله تعــالى قـــامت على العـــدل في كبـــير الأمـــور وصـغيرها ، وفي كـلّ شـيء ، وهي تـأمر بالعـدل في كـلّ شـيء ، وبالعـدل قـامت السـموات والأرض ، والجنـوح عن العـدل والتوازن جور تأباه شريعة الله ، لأنّه يعـني تعطيل جـــوانب من دين الله تعـــالى ، مطلوبة مهمّة ..

4 ـ الواقعيّة الإيجابيّة : والثقافة الإســلاميّة تتّسم بالإيجابيّة الواقعيّة ، فهي تتعامل مع الواقع بإيجابيّة ، فلا تجنح إلى المثاليّة البعيــدة عن الواقع ، ولا تقف من

الواقع وقفة سلبيّة ، فيتأبّى على الاستجابة لها ، وقبول إصلاحها ..

5 ـ العمليّة والتدرّج : والثقافة الإسلاميّة ثقافة عمليّة ، تقوم على المنهج العمليّ الواقعيّ ، ولا تقتصر على التنظير وطرح الشعارات ، شأن المناهج الوضعيّة ، وهي تعالج واقع الإنسان ومشكلاته ، وتنهض به ، بتدرّج ورحمة ورفق ، فلا عنت فيها ولا إحراج ، وهي لا تفرض على الإنسان التغيير دفعة واحدة .

6 ـ ومن خصائص الثقافة الإسلاميّة : المرونة والتطوير : فهي تجمع بين الثبات في الأصول والمبادئ ، والمرونة في الأساليب والوسائل ، ولا تقف من المستجدّات وقفة الرفض ، ما لم تكن متعارضة مع الأصول والمبادئ مجافية لها ، وتعدّ الحكمة ضالّة المؤمن أنّى وجدها فهو أحقّ بها .

هذه نظرة موجزة عن أهمّ خصائص الثقافة الإسلاميّة ، وهي مبثوثة في جميع نظم الشريعة وأحكامها ، وينبغي على المربّي أن لا يغفل عنها في تربيته للطفل والناشئ ، ورعايته له بشريعة الله وأحكامه .

* ماذا قدّمت لعقلِ طفلك .؟!

أيّها المربّي .! مالم تكن حريصاً على بناء عقلك ، فلن تسـهم في بنـاء عقل طفلك ، وربّما وضـعت أمـام عقله كتلاً من الأشـواك والمعوّقات .. فانظر في بنـاء عقلك أوّلاً .!

التفكير عبادة أكـرم بهـا منْ عبـادة .! إذ هو روح كلّ عبـادة ، وهو السـبيل إلى بناء العقيـدة على أسـسٍ مكينة ، من منطق العقل ، وقـوّة الحجّة ، ونَصـاعة البيّنة ، يقـول الله تعـالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ لآياتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) ﴾ آل عمران .

وإنّ بناء العقـلِ على التفكـير المنهجيّ السـليم مهمّة تربويّة معقّـدة شـاقّة .. قصارى ما يسـتطيع المبـدع أن يدّعيَه فيها أنّه يحـاول ويجتهد ، أن يخطو خطـوة في الطريق الصـحيح .. ويتجلّى تعقيـدها ومشـقّتها أنّ الناشئ والبـالغ الناضج تعترضه في تقلّبات الحياة الكثيرة مطبّـات

ومزالق ، تكشف له عن خلل في بنـــــاء عقله ، وطريقة اتّخاذ قراراته ، ممّا يـدعوه دائمـــاً إلى اكتشـــاف أخطائه ، ومراجعة نفسه ولومها ، وإعــــادة النظر في منطق معالجته للأمـــور ، ومنهجيّته فيما يتّخذ من قرارات ومواقف ..

وما لم تكن منهجيّة البنـــــــاء العقليّ السـليم حاضـرة في يد الإنسـان في كـلّ موقف من مواقف حياته ، كما يســـتخدم الماشي في الظلماء النور الكاشف .. فإنّ مواقفــه معرّضة لأن تخـــرج عن مــوازين العقل الصحيحة ، وتتيه وراء أوهام الأهـواء والتحيّزات .

* وأهمّ معــالم البنــاء العقليّ للطفل تتجلّى في النقاط التالية :

1 ـ تعليم القراءة والتحبيب بها :

2 ـ تعليم المحاكمة العقليّة الصـحيحة ، ومنهجيّة تفسير المواقف واتّخاذ القـرارات :

3 ـ التـدريب على البحث ، واكتشـاف الحقيقة والمعلومة بنفسه :

1 ـ تعليم القـراءة والتحـبيب بها ، والسبيل إلى تحقيق ذلك :

* أهمّ أهداف القراءة :

ـ تنمية المهارات اللغويّة .

ـ تنمية مهارات التفكير .
ـ العلم والمعرفة .
ـ إثارة المواهب ، وتحفيز الإبداع .

القواعد الأساسـيّة لتعليم القراءة والتحبيب بها :

أ ـ اقـرأ أمـام طفلك بصـوت مرتفع ، وتفاعل مع القراءة .

ب ـ قدّم له الكتاب أو القصّـة بتشـويق بالغ لموضوعها ، وتعريف مشوّق بمؤلّفها .

ج ـ اجعل الـبيت في أوقـات معيّنة مكتبة عامّة ، وهيّئ الجوّ للقراءة الممتعة ، والبحث الجادّ .

2 ـ ويقوم **تعليم المحاكمة العقليّة الصـحيحة ، ومنهجيّة تفسـير المواقف واتّخـاذ القـرارات** على النقاط التالية :

أ ـ طـرح الأسـئلة على الطفل قبل إفادته بأيّة معلومة .

ب ـ تصدير الأسئلة المطروحة إليه .

ج ـ أن لا يقبـل كـلّ ما قـرأ قبل البحث والمناقشة ، والمحاكمة الصـحيحة ، بـدون غلوّ أو غرور .

3 ـ التـدريب على البحث ، واكتشـاف الحقيقة والمعلومة بنفسه :

التفكـير نشـاط عقليّ راقٍ ، يعين الإنسـانَ على فهم الواقع ، والتعامل معه

بإبـــداع وابتكـــار ، ويميّـــزه عن ســـائر المخلوقات .

وهو بمعنـــاه العـــامّ إمعـــان النظر في الأشـــياء أو الموضـــوعات أو الظـــواهر للوصـــول إلى الفهم أو الحكم ، أو تفســـير الظواهر بصورة قطعيّة سديدة ، فهو يَقوم على إدراك طبيعة العلاقة بينَ الأشـــــياء وتأثيرها ببعضها ..

ـ **مراحل التفكـــير** : تحتـــلّ عمليّة التفكير منزلة كبيرة في النشاط الإنســانيّ ، وبوجهٍ خـاصّ في المجـال الـتربويّ ، ممّا يؤكّد علَى الآبَاء والمـربّين ضـرورة تـدريب الطفل والناشئ على الالـــتزام بـــالمنهج العلميّ الموضوعيّ الصـحيح ، الـذي يقـوم على الملاحظة والمشَـــاهدة ، واكتشـــاف العلاقة الموضـوعيّة بيْن الأشـياء ، لتقـديم التفسير العلميّ الصحيح لها ..

وفي سبيل الوصول إلى النتائج العلميّة الصحيحة ، واكتشاف سنن الله في النفس والآفَـــاق ، فـــإنّ التفكـــير يجب أنْ يمـــرّ بالمراحل التالية :

1 ـ الشعور بالمشكلة وتحديدها :

2 ـ وَضع الفروض العلميّة لتفسيرهَا:

3 ـ اختبار صحّة الفروض :

4 ـ اعتماد الحلّ في الأمثلة المشابهَة : وهو ثمـرة التفكـير السـديد ، ويسـمّى عند علماء أصول الفقه : " القيَاس " .

وينبغي أنْ يقتصر دور الوالد والمـــربّي على تقــديم المُســاعدة للطفل والناشئ ، ليمضي في الاتّجـاه الصـحيح للوصـول إلى التفكير العلميّ الموضوعيّ الصــحيح ، وأن لا يقـــوم عملهم بـــدور التلقين ، وتقـــديم المعلومــات الجــاهزة ، ممّا يغــري الطفل والناشئ بــــــــالخمول والكسل العقليّ ، والاعتماد على غــيره ، ليفكّر عنه ، ويقــدّم له الحلول في كلّ موقف ..

عادات العقل " الستّ عشرة :

1 ـ المثابرة .

2 ـ التحكّم بالتهوّر

3 ـ الإصغاء بتفهّم وتعاطف

4 ـ التفكير بمرونة

5 ـ التفكــير حــول التفكــير (فـــوق معرفيّ)

6 ـ الكفاح من أجل الدقّة

7 ـ التساؤل وطرح المشكلات

8 ـ تطــبيق المعــارف الماضــية على أوضاع جديدة

9 ـ التفكير والتوصيل بوضوح ودقّة

10 ـ جمع البيانــاتِ باســتعمَال جميع الحواسّ

11 ـ الخلق التصوّر الابتكار

12 ـ الاستجابة بدهشة ورهبة

13 ـ الإقدام على مخاطر مسئولة

14 ـ إيجاد الدعابة

15 ـ التفكير التبادليّ

16 ـ الاستعداد الدائم للتعلّم المستمرّ

فاســتخدم عقلك أيّها الإنســان ! ولا تعطّله ..

هذا والله تعالى أعلم
وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده
ونبيّه سيّدنا محمّد ،
وعلى آله وأصحابه أجمعين .
والحمد لله ربّ العالمين .

* صدر للمؤلّف *

1 ـ ضرب الأمثال في القرآن أهدافه التربويّة وآثـاره .
2 ـ وجوب وحدة المسلمين .
3 ـ رسالة المعلّم وآداب العالم والمتعلّم .
4 ـ اعرف نبيّك محمّداً يا بنيّ .!
5 ـ ومضات من هدي النبيّ الخاتم .
6 ـ البيّنات في تفسير سورة الحجرات .
7 ـ المنهج القويم للداعية الحكيم .
8 ـ مشاهد الأتقياء في الصبر على الابتلاء .
9 ـ رسالتان في التربية .
10 ـ قصص وعـبر من لطـائف القـدر . المجموعة الأولى .
11 ـ قصص وعـبر من عجـائب القـدر . المجموعة الثانية .
12 ـ حديث القلب .
13 ـ النصائح الذهبيّة لتربية الأولاد ورعايتهم .
14 ـ قبسـات من نـور النبـوّة لصـاحبي الفضـيلة : الشـيخ أحمد عـزّ الـدين البيـانوني ، والشـيخ عبد الفتّـاح أبو غـدّة رحمهما الله تعـالى . بعناية د. عبد المجيد البيـانوني ، وفي ختامه رسـالة : " ومضـات من هدي النبيّ الخاتم " .
15 ـ تذكرة العابد بحقوق المساجد .
16 ـ أساليب تربويّة ومفاهيم دعويّة من حياة الشـيخ أحمد عزّ الدين البيانوني .
17ـ ركـائز دعويّة من هـدي النـبيّ في العلاقـات الاجتماعيّة .
18 ـ القول المبين في تفسير سورة : " يس " .
19 ـ لمحـات من حيـاة الشـيخ أحمد عـزّ الـدين البيانوني وتعريف بمؤلّفاته .
20 ـ مواقف تربويّة من هدي النبيّ مع الأطفال .

21 ـ خمس عشرة مهارة تجعلك مربّياً متميّزاً .

22 ـ خطوة خطوة نحو التربية الناجحة .

23 ـ أربع رسائل في التربية .

24 ـ لئلاّ تضيع الطفولة : ثلاثـون سـبباً تمنعك من الطلاق .!

25 ـ الغائب المنتظر

26 ـ ملامح السعادة في تربية الطفل على العبادة

27 ـ معالم تربويّة

28 ـ رفقاً بالقوارير!

29 ـ أيّها الأمير رسَالتَان فِي النُّصح وَالرِّعَايَة

30 ـ إنّها الأنثَى .! رؤى نقديّة حول دعوى التمييز ضدّ المرأة

31 ـ كيف تنعم أسرنا بالأمن .؟